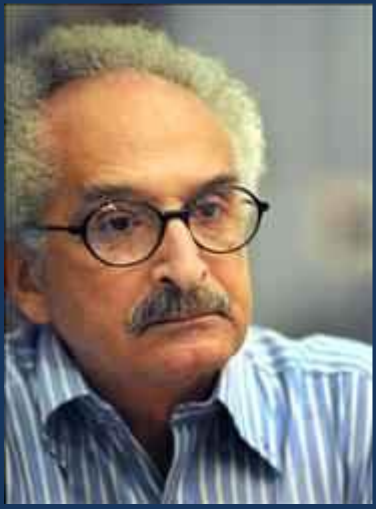


صنع الله ابراهيم

رواية القانون الفرنسي

بـواتييه

-دكتور شكري!

التفت خلفي وشاهدت بين جموع المسافرين زميلاً من حوارييي عدوي اللدود حلمي عبدالله (1.)

صافحته مبتعدا بوجهي لأتحاشي رائحة فمه التي مزجت بين دخان السجائر والتهاب اللثة. قال وهو يتأمل ملابسي بنظرة فاحصة ليقيس مدي نجاحي: أنا مسافر إلي جامعة "العين" في الإمارات. وأنت؟ قلت: مؤتمر في فرنسا.

التمعت في عينه نظرة حسد. قال:كيف حال التفرغ؟

كان يشير إلي تقاعدي وتعييني أستاذا متفرغا للتاريخ المقارن في جامعة القاهرة بمبلغ لا يتجاوز عدة مئات قليلة من الجنيهات.

قلت: لا بأس.

دعاني إلي الجلوس معه في كافيتريا المطار فقلت إن موعد طائرتي حان وأسرعت بالانصراف.

ولجت الحمام وتبولت ثم غسلت يدي وأنا أتأمل وجهي في مرآة عريضة. ساويت شعري الأبيض وخرجت.

لمحت فتاة جالسة بين عدد كبير من الحقائب. شعر أسود قصير وناعم. نظارة طبية. ملابس مهملة تتألف من بلوزة دون رقبة داخل بنطلون أسود. قامة رشيقة. كانت منحنية فوق كمبيوتر محمول وضعته فوق فخذيها وتعمل عليه بتركيز. لم تكن مصرية وقدرت أنها قد تكون فرنسية.

وقفت وسط مجموعة من السائحين الفرنسيين يعلقون علي مشاهداتهم وتجاربهم في القاهرة. كانوا متشاركين في زجاجة مياه بركة يحملها أحدهم ويلجأون إليه بين الحين والآخر طلبا لرشفة. وعرفت أن موعد قيام الطائرة مازال مجهولا. ومع ذلك بدأ إخراج الركاب إلي الباص الذي سيقلهم إليها.

كان للمجموعة الفرنسية قائدة في حوالي الستين، دقيقة الحجم، بالغة النشاط، فرضت نفسها منذ اللحظة الأولي كفرد من طاقم الطائرة، مسئولة عن سلامة جماعتها، وأعطت أولوية الخروج للعائلات ذوات الأطفال. صعدت إلي الطائرة خلفهم وهبط قلبي عندما تبينت أنها من طراز بوينج 737 الذي تعددت حوادثه.

جاء مكاني بين اثنين من السائحين. ولمحت فتاة الكمبيوتر في صف أمامي ناحية اليسار. قدرت عمرها بالثلاثين. وكشفت البلوزة عن رقبة طويلة تغري باللمس والتقبيل.

وبينما تحركت المضيفات السمراوات المبطرخات ببطء وهن يتثاءبن، لم تهدأ قائدة الفرنسيين العجوز لحظة في المرور علي أفراد جماعتها والاطمئنان عليهم وعلي الأطفال منهم بوجه خاص.

هبت علي موجات من روائح العرق الشديد. كانت بجواري امرأة خمسينية شقراء يلتمع جلد وجهها الأحمر وبين لحظة وأخري تتلمس جذور شعر رأسها بأنامل أصابعها في رفق،

ثم ترفعها أمام عينيها لتري ما استخرجته من قشور. التفتت إلي عدة مرات ثم سألتني عما إذا كنت أعيش في فرنسا. نفيت ذلك وأريتها كتيب المؤتمر. قرأت الكتيب واستعرضت أسماء المشاركين باهتمام ثم قالت في خيبة أمل: ليس بينهم أحد من المعروفين.

تابعت نقاشا حادا يجري بين فرنسيين خلفي. سمعت أحدهما يقول: لم يعد أحد حتي في اليسار يؤمن بالماركسية. الملكية الخاصة هي الأساس لكل شيء.

كما هو منتظر، ولأنها طائرة رخيصة، فضلا عن كونها مصرية، فقد أقلعت بعد ساعة من موعدها دون أن يتذمر أحد من الركاب، ودون أن يحملوا علي محمل الجد الاعتذارالتقليدي الذي قدمه قائد الطائرة بعد أن حلقت في السماء.

طرنا بعض الوقت فوق ألوان ترابية بنية بلا خضرة حول مدن صغيرة في شبه دوائر غير محددة وعشوائية وبداخلها مبان متناثرة في غير نظام.

انحني رفيق جارتي علي النافذة يصور السحاب بكاميرا فيديو. وبدأت أشعر بالاختناق من روائح العرق.

التفت خلفي بحثا عن مقعد آخر ينقذني من الروائح. لمحت واحدا خاليا بجوار فتاة شقراء نحيفة بعينين زرقاوين تعلوهما عوينات طبية وترتدي بلوزة زرقاء وبنطلون جينز و حذاءً رياضيا.

تناولت حقيبة كتفي وغادرت مقعدي. اقتربت منها وأشرت إلي المقعد المجاورلها. سألتها إذا كان خاليا فأجابت بالفرنسية: نعم.

كانت تحتل المقعد المطل علي الدهليز فمالت بساقيها لتسمح لي بالمرور إلي المقعد المجاور للنافذة. ورفعت إلي عينيها قائلة: إنه مقعدي في الأصل لكني أخاف من الجلوس إلي جوار النافذة.

بمجرد جلوسي مدت يدها إلي قائلة: اسمي دنيس وأنت؟

تناولت يدها وذكرت لها اسمي.

قالت: هل سنتحدث بالفرنسية أم بالإنجليزية؟

قلت: لا بأس بالفرنسية ولو أن لهجتي رديئة.

كانت شفتاها متشققتين في أكثر من مكان.وكشفت بلوزتها جانبا كبيرا من نحر لوحته شمس حديثة. تجاهلتها وبسطت صحيفة ودفنت رأسي فيها.

قالت بعد لحظة: أنا فرنسية وأعمل في شركة فرنسية بالقاهرة وعائدة في أجازة قصيرة لرؤية زوجي.

أبديت اهتمامي دون أن أعلق.

استطردت: إنه أكبر مني بسنة. عمري 24 سنة. وأعرفه من أيام الدراسة. أنا منفعلة جدا فقد افتقدت الرقص والأصدقاء.

لم تمض نصف ساعة حتي كنت أعرف عنها كل شيء: زوجها هادئ الطبع علي عكسها فهي دائمة الحركة لا تكف عن الحديث. أبوها موسيقار دائم السفر. أمها في حوالي الخمسين مغرمة بالشراب وتعمل في شركة لإنتاج الموسيقي. في السنوات الأخيرة

بدت الأم عاجزة أمام أشياء كثيرة وصارت تعتمد علي الابنة الأخري. وأوحت نغمة الحديث بأن الأبوين انفصلا من مدة.

لم تلبث أن تكشفت عن أنها مصابة بداء الكلام القهري. كانت فاطنة إلي أن عيني تنزلقان برغمي عندما ألتفت نحوها، إلي أعلي ثدييها اللذين يبدوان من فتحة البلوزة فتهبط بعينيها إلي صدرها تتأمل المشهد الذي أطالعه.

قالت: للأسف أن الخمور لا تتوفر علي الطائرة المصرية. فأنا أتوق إلي كأس.

أخرجت الزجاجة التي ابتعتها من السوق الحرة علي الفور فابتهجت. استدعيت المضيفة وطلبت منها كأسين بقطع من الثلج. فتحت الزجاجة وصببت لها ولي. وقرعنا الكأسين.

قالت: أتمني أن تكون أعمال الشغب قد توقفت في باريس.

أجبت: لابد. فقد مضي عليها أكثر من أسبوع.

قالت: إنهم مجانين. ماذا يريدون؟

قلت: الذي فهمته من الصحف أنهم يحتجون علي البطالة ووحشية الشرطة (2.)

لم تعلق، إذ بدأت شاشة العرض المعلقة في عرض فيلم أمريكي.

قالت إنه فيلم كوميدي شاهدته من قبل. ولم يمنعها هذا من الاستغراق في متابعته.

أزحت مقعدي إلي الوراء ورشفت من كأسي وأنا أتابع الفيلم. كان عن زوج تركته زوجته لفشله في مهنة التمثيل. وأخذت أولادهما معها. فتنكر في شكل خادمة ليتمكن من رؤية الأطفال ويحكي لهم القصص حتي تعلقوا بـ(ها). وأوحي إليه نجاحه

في اجتذاب أطفاله بإعداد برنامج خاص موجه إلى الأطفال اقتحم به شاشة التليفزيون. وحقق النجاح الذي كان يطمح إليه. وفي النهاية عادت إليه زوجته.

كانت المشاهد الميلودرامية رغم افتعالها الواضح مؤثرة للغاية فدفعت بالدموع إلي عينيها وإلي عيني أنا الآخر. لكن ذلك لم يخلق أي رابطة بيننا.

خالجني الشعور بأنها لا تراني. فلم تسألني حتي عن عملي أوسبب سفري إلي فرنسا. وأنا الذي تبرعت بأن أذكر لها جنسيتي. ولم يثر هذا أي اهتمام أوفضول لديها. كانت تبدو نافدة الصبر حينما أشرع في الحديث. فما كانت تقوم به فعلا هو الحديث عن نفسها لنفسها.

ما جعلني أتحملها هي رائحتها. كانت بالتأكيد رائحة جنسية قوية بلا تدخل من عطر. تسليت بمحاولة تحديد مصدر الرائحة. كانت قد ذكرت أنها لم تنم جيدا لأنها سهرت بالأمس مع بعض الأصدقاء.

هل انتهت السهرة بجنس؟ وقامت من النوم متأخرة ولم تجد وقتا للاغتسال الذي هو عموما ليس من عادات الفرنسيين؟ أو أنها استمنت في الصباح كعادة يومية أو بتأثير اللقاء المرتقب مع زوجها؟ أولعلها فقط منفعلة بقرب لقائه؟ وهل هذا ممكن في علاقة مرت عليها سنوات؟. الشك هنا مصدره تركيزها الدائم علي نفسها الذي ربما ينسحب أيضا علي علاقتها بزوجها.

أيا كان السبب، فإن الرائحة كانت جميلة.

(2)

حطت الطائرة أخيرا في مطار أورلي في جو قاتم بدا من النافذة. سبقتني إلي الخروج مسرعة. ولم تلبث أن غابت عن بصري. وجرت مراقبة الجوازات بتدقيق بالغ. ثم مضيت مع لافتة استعادة الحقائب مسافة حتي بلغت مكانها ووقفت أنتظر وأنا أتأمل الواقفين.

تعلقت عيناي بامرأة طويلة القامة بشعر أشقر قصير ترتدي معطفا طويلا من الجبردين وتنتعل حذاء جلديا بني اللون بكعب متوسط رأيتها تجذب حقيبتها في حيوية ونشاط.

الحنين الدائم الذي صاغ سنوات المراهقة والدراسة والعمل بالذوبان داخل معطف أسود معطر فوق امرأة. حديقة المقهي والمرأة الأربعينية الممتلئة بادية الرصانة والأمومة ويدها تستقر فوق يد شاب حزين أسمر أصغر منها سنا بعقد علي الأقل وليس ابنها بالتأكيد.

استعدت حقيبتي الثقيلة واستخرجت منها معطفي وارتديته. ثم علقت الحافظة الجلدية المنتفخة في كتفي. التقطت حاملة حقائب مقابل نصف يورو وضعته في ثقب بمقبضها. دفعت الحاملة أمامي حتي موظفة الجمرك كانت ترتدي بلوزة سماوية اللون وجوبة زرقاء. انتظرت خلف طابور من الفرنسيين، ورأيتها تسمح لهم بالمرور دون كلمة. وعندما وصلت أمامها طلبت مني الجوازمستفسرة عن مهنتي.

قلت لها إنني بروفيسور جامعي.

ناولتني الجواز وهي تردد في سخرية خفيفة: تفضل يا بروفيسور. وأشارت لي بالمرور.

عاودتني آلام ظهري وأنا أعبر الأنفاق الطويلة المؤدية إلي المخرج. تشاغلت بالفرجة علي الإعلانات الجدارية. لفت نظري ملصق لغلاف عدد من مجلة التصوير لامرأة تكشف عن فخذها وإليتها. ثم شهدت ملصقا آخر لمؤخرة امرأة أسفل هذا التساؤل: هل الأفلام الإيروتيكية تساعد الأزواج في حياتهم الجنسية؟ وحوي ملصق ثالث عدة أرقام تليفون وتحتها هذه العبارة: "اتصل بنا قبل أن تقدم علي الانتحار."

اعترضني عند المخرج شاب عربي أدركت من لهجته أنه من شمال أفريقيا. سألني إذا كنت في حاجة إلي تاكسي. أجبت بالنفي وسألته بدوري عن محطة الباص فدلني عليها في فتور. أنزلت حقيبتي بصعوبة من فوق الحاملة ودفعتها بعيدا غافلا عن استرداد نقودي. ورأيت الشاب يقترب منها ويجرها إلي صف حاملات فيدفعها فيه ويسترد العملة التي أودعتها.

أقلني الباص إلي ميدان دنفر – روشو بينما كنت أكافح الكآبة التي انتابتني وأنا أتابع الطرقات النظيفة والحدائق والتشطيب الدقيق الأنيق لحواف الأرصفة وأحواض الأشجار والزهور وجوانب الكباري وأسفلها.

أنزلت حقيبتي وأنا أئن من ثقلها. ولمت نفسي علي أني أحضرت هذا الكم من المراجع والملابس. عبرت الميدان.وهبطت إلي محطة المترو. استقبلتني لافتة مونبارناس بيان فيني. تسليت بترجمة العبارة إلي العربية.

مونبارناس أهلا وسهلا أم حمدًا لله علي السلامة؟

عند شباك البطاقات وقع ما كنت أتوجس منه. كان العامل شابا صغيرالسن مزهوا بنفسه كثير الحركة، منهمكا في حديث متواصل مع زميله الجالس خلف النافذة المجاورة. ذكرني علي الفور بشبان النواصي وركاب الموتوسيكلات.

وضعت حقيبتي الكبيرة علي الأرض وأسندت إليها الثانية الأصغر وأوشكت أن أتعثر فيهما وأنا أحني رأ سي أمام فتحة النافذة وأجاهد كي يكون نطقي واضحا.

سألته عن ثمن البطاقة إلي مدينة بواتييه فأشار في ضيق إلي لافتة معلقة فوق زجاج النافذة. جمعت بعض القطع المعدنية من جيوبي وأعطيتها له. ولم أنتبه إلي أن إحداها من عملة الفرنك الملغية. وكان هذا ما ينتظره الشاب إذ صاح في غاضبا وأعادها إلي ثم قال شيئا لزميله لم أشك في أنه تنديد بحمورية الأجانب (الشرقيين بالطبع والعرب علي وجه الخصوص.(

حصلت علي البطاقة وحملت حقيبتي إلي محطة القطار. كان الزحام شديدا يتألف فيما يبدو من المغادرين للمدينة بسبب أحداث الشغب.

بدأت أبحث عن رصيف القطارالسريع تي جي في. سألت رجلا في ثياب أنيقة فقال إنه روسي ولا يعرف الفرنسية. استوقفت امرأة مسرعة فابتعدت عني خائفة. وأخيرا عثرت علي الرصيف في جانب آخر من المحطة الضخمة.

تقدمت من القطار الذي كان موشكا علي التحرك. اعترضني محصل أريته بطاقتي فقال لي عبارة فهمت منها أنه لا بد من المضي بعيدا إلي آخر الرصيف. مشيت طويلا حتي وجدت نفسي أمام قطار آخر. كانت هناك فتاة تودع أهلها فأريتها البطاقة.

قالت: هذا هو القطار، لكن عربتك في نهايته. اصعد هنا الآن لأنه سيتحرك.

رفعت حقيبتي في صعوبة إلي مدخل العربة. وتنقلت بمشقة بين العربات حتي وصلت مكاني.

جلست وأنا أتنهد شاعرا بالعرق يسيل تحت إبطي. أنصت لشابين في المقعد المقابل يتبادلان الحديث بصوت عال عن مزايا أنواع مختلفة من السيارات والقوارب. وكانا يبدوان في تمام الصحة واللياقة البدنية.

قمت بعد قليل فذهبت إلي عربة الكافيتريا واشتريت علبة بيرة. عدت إلي مقعدي وجلست أحتسيها في استمتاع بينما القطار مندفع كالصاروخ. تأملت رجلين في مقعد جانبي. أحدهما صغير السن والثاني كهل. وأشارالأخير إلي المقعد التالي لهما ساخرا. وكان به شاب وفتاة غارقين في القبلات. وما لبث الرجلان أن نهضا وغادرا العربة. ثم عادا بعلبة بيبسي وكوب قهوة من الورق. وجلس الشاب يحتسي البيبسي بينما ظل الثاني واقفا يتطلع إليه في حنان.

رجل وابن أم رجل وعشيق؟

تأملت رف الحقائب الذي تألف من زجاج سميك عاكس يتيح رؤية رؤوس الجالسين تحته أو وجوههم المقلوبة إذا كانوا يجلسون في المقاعد العكسية.

لمحت ما بدا لي ساعدا عاريا يداعب جسما عاريا والاثنان في حركة دائمة. دققت النظر فتبينت يدًا أنثوية تتحسس ما خلت أنه فخذ عار. تدفقت الدماء في عروقي وتركت العنان لخيالي. وقمت بعد لحظة متجها إلي الحمام. واكتشفت أني كنت أتطلع إلي صورة أم تهدهد طفلة صغيرة لم تتجاوز الثانية من عمرها لتساعدها علي النوم. فعدت مكسوفا إلي مقعدي.

توقف القطار في الطريق فجأة وانطفأت أنواره. وأعلنت إذاعته عن عطل في الشبكة الكهربائية. وكررت الإذاعة الخبر. وبدا الانزعاج والقلق علي الركاب. وواصلت الإذاعة الإبلاغ كل بضع دقائق عن الموقف. ثم تحرك القطار وتوقف بعد قليل. وأعلنت الاذاعة

عن إعداد سيارات لتقل الركاب من المحطة التالية إلي بعض الوصلات. ثم أعطت عنوانا يمكن للركاب الكتابة إليه للمطالبة بتعويض عن التأخير.

ابتسمت لنفسي وأنا أتابع ردود الأفعال – سواء من جانب الركاب أو قيادة القطار – بالنسبة لأمر يعتبر عاديا في بلادي.

امتد العطل حوالي الساعة قبل أن يستأنف القطار طريقه. وحمدت الله أني قررت الاعتماد علي نفسي في الذهاب إلي المكان المعد لإقامتي وأعفيت الأستاذ الجامعي المكلف من عبء استقبالي.

(3)

وصلنا بواتييه بعد حوالي ساعة من تعطل القطار. وخرجت إلي الظلام والمطرالخفيف. بسطت مظلتي واتجهت إلي موقف التاكسي.

لمحت راكبا ينتظر فوقفت إلي جواره. وتجمع الباقون في نهاية الرصيف. ووفدت سيارة تاكسي خالية. انتظرت أن تتوقف أمام جاري لكنها مضت إلي نهاية الرصيف. وفجأة تحرك جاري مبتعدا في الاتجاه المعاكس وتبينت أنه لم يكن في انتظار تاكسي علي الإطلاق.

انضممت إلي الطابورالحقيقي ووقفت أنتظر في الجو البارد. راقبت سيارات التاكسي الفارهة وهي تقترب من عدة جهات وتدور بصينية صغيرة ثم تندفع إلي بداية الطابور حيث تتوقف ليستقل كلاً منها فرد واحد. بينما تستوعب ثلاثة. وربما كان أغلب الواقفين متجها إلي نفس المكان. لكن لا أحد يسأل. ولا سائق يصيح: واحد الجاراج أو السلام. ولا أحد يعرض رغم الساعة المتأخرة والبرد والمطر.

حل دوري أخيرا. وأريت السائق ورقة تحمل اسم "المسكن الفندقي" وعنوانه. فتذمر قائلا إن المكان قريب. لكنه انطلق بالسيارة إلي ما بدا لي مركز المدينة ومضينا في شارع ضيق. ولم يدفعه الضيق إلي الاكتفاء بالوقوف في أقرب نقطة أو في عرض الطريق أو حتي أمام واجهة المبني كما يفعل سائقو القاهرة. وإنما ولج الباحة الممتدة أمامها وأنزلني بالضبط أمام باب يحمل لافتة «الاستقبال.«

كان المبني حديثا من ثلاثة طوابق له واجهة مائلة من الصلب والزجاج تضيئها أنوار قوية. تركت حقيبتي فوق الرصيف ونشرت مظلتي تحت المطر وتقدمت من باب زجاجي معتم. تبينت خلفه حوضا للزهور ولافتة أسعار. ضغطت ما خلته جرسا في لوحة معدنية تضم فتحات الإنتركوم وأزرار الشفرة. لكن أحدا لم يستجب.

أعدت الكرة وأنا أجذب مقبض الباب بلا فائدة. حاولت مرة ثالثة وأنا أدفعه إلي الداخل. ضغطت أزرار الشفرة مكونا مجموعات عشوائية من الحروف والأرقام دون جدوي. عدت أتفحص الواجهة والباب وانتبهت إلي لافتة تقول إن الإدارة تعمل من السابعة صباحا حتي العاشرة مساء. وكانت عقارب ساعتي تشير إلي العاشرة والنصف. ولم ينبهني الأستاذ منظم المؤتمر لهذا الأمر لأنه بلا شك كان علي بينة بجدول سفري وواثقا من أني سأصل الفندق قبل أن يغلق أبوابه فالطائرات والقطارات في أوروبا تلتزم بمواعيدها التزاما صارما ولا تتأخر أو تتعطل إلا في النادر.

توقف المطر فنقلت حقيبتي إلي جواري ووقفت تحت مظلتي أتطلع حولي. كان الشارع مهجورا تماما، ومنازله وحوانيته مظلمة. عدت أتأمل المبني. كان ثمة بوابة عريضة من قضبان حديدية طولية تمتد في حذاء الواجهة وخلفها فناء ركنت به بضع سيارات،

وفي نهايته مبني آخر مماثل تماما للمبني الذي وقفت أمامه. وكانت ثمة لافتتان تشير أولاها إلي المبني الخارجي بحرف "أ"والثانية إلي الداخلي بحرف "ب."

رأيت شابا وفتاة يقتربان مني. وتوقفا أمام المنزل المجاور. كان مبني قديما له باب صغير من الخشب الثقيل فوق درجتين فتحته الفتاة بمفتاحها ثم دخلت بعد أن تركته مواربا. وظل الشاب واقفا يدخن.

تقدمت منه ووجهت إليه تحية المساء طالبا مساعدته. قلت له إن هناك غرفة محجوزة باسمي والمشكلة هي كيف أدخل. كررت ما قلته ضاغطا علي مخارج الألفاظ كي يستوعبه. أجابني بأنه لا يعرف شيئا عن هذا المكان.

خطر لي أن أتصل بصديقي أستاذ الجامعة. سألت الشاب عما إذا كان هناك تليفون في المنزل الذي ولجته الفتاة يمكن الاتصال منه. قال إنه لا يعرف وأشار إلي نهاية الشارع قائلا: هناك تليفون عمومي.

أومأت إلي حقيبتي وقلت: لا أستطيع حملها إلي هناك وليس معي بطاقة للتليفون إذ نسيت شراء واحدة. وليس هناك حانوت مفتوح الآن.

كنت آمل أن يعرض علي بطاقته أو يقترح حلا، لكنه أدار لي ظهره قائلا إنه لا يستطيع لي شيئا.

عدت أدراجي إلي موضع الحقيبة.فوجدت البوابة الحديدية مفتوحة إلي آخرها. فكرت في الدخول فربما أمكنني ولوج المبني من باب جانبي أو خلفي أوالذهاب إلي المبني الداخلي. وداعبني الأمل في أن أعثر في الداخل علي حارس ليلي يستطيع مساعدتي. ثم خطر لي أني ربما أصبح أسير الفناء عندما تغلق البوابة وبذلك أفقد حرية الحركة.

وبينما أنا موزع بين الفكرتين بدأت البوابة تتحرك في نصف دائرة نحوالإغلاق. وفوق طرفها مصباح يرسل ومضات تحذيرية صفراء اللون. وفجأة توقفت وأخذت تعود إلي وضعها السابق المفتوح كأنها تدعوني للدخول>

هوامش

راجع تفاصيل علاقة الراوية بالدكتور حلمي عبد الله في رواية "أمريكانلي" الصادرة عام 2003 عن دار المستقبل العربي بالقاهرة>

في السابع والعشرين من شهر أكتوبر الماضي (2005) كان ثلاثة شبان من مراهقي حي كليشي سو بوا – وهو من أحياء باريس الفقيرة المكتظة بالمهاجرين – قد انتهوا من لعب كرة القدم مع أصدقائهم، واتخذوا طريق العودة إلي بيوتهم. ورأوا الشرطة تعترض المارة فخشوا أن يتعرضوا للتحقيق الطويل الذي يواجهه شباب المنطقة من الشرطة إذ تطلب منهم إبراز بطاقات الهوية وتحتجزهم عدة ساعات ثم تشترط أن يأتي أهاليهم لتسلمهم. لتجنب ذلك قرر الشبان الثلاثة الهرب فتسلقوا حائطا للاختباء في محطة كهرباء. وبعد نصف ساعة انقطعت الكهرباء عن المنطقة وأعلنت الشرطة أن هذا الانقطاع تم نتيجة صعق شابين اختبآ في المحطة هما زايد بنا وبونا تراوري اللذان يوحي اسماهما بأنهما من أصول أفريقية. وعلي الفور انفجرت أعمال العنف في الضاحية وامتدت إلي أماكن أخري كما انضم إلي المحتجين أبناء الجيل الثاني من المهاجرين البرتغاليين وشباب كثيرون من الفرنسيين الأصلاء

لمحت شخصا في مدخل المبني ب. تركت حقيبتي وحملت حافظتي الجلدية وعبرت المدخل وجريت نحوه. رأيته يدخل من باب زجاجي معتم مماثل للذي كنت أحاول فتحه. صحت به:

هالو.هالو. لكنه أغلق الباب خلفه واختفي في الداخل. كانت بالباب لوحة معدنية مماثلة لتلك الموجودة في باب المبني الأول. دققت الجرس، وحركت مقبض الباب، وعبثت بأرقام وحروف الشفرة دون جدوي. وقفت حائرا، ثم رأيت البوابة تتحرك من جديد في اتجاه الإغلاق والمصباح الأصفر يرسل ومضاته التحذيرية فهرعت نحوها وحملت حقيبتي إلي الداخل وقفت أتأمل البوابة حتي انغلقت تماما.

تركت الحقيبة مكانها ودرت حول المبني "أ " فلم أجد منفذا إليه. رفعت بصري إلي الواجهة الخلفية للمبني. كانت مؤلفة من ألواح زجاجية عاكسة للضوء لا تكشف عما خلفها. وكانت كلها مظلمة أو هكذا كانت تبدو علي أي حال. ظللت رافعا رأسي إلي أعلي، كأنما أنتظر أن يظهر شخص ما في إحدي النوافذ لينشر غسيلا أو يتأمل الشارع أو يثرثر مع الجيران. ثم عبرت الفناء الذي اصطفت به عدة سيارات ومضيت إلي المبني "ب".

اكتشفت أن المدخل به مكتب للاستقبال وكمبيوتر مفتوح، عليه تعليمات خاصة بطعام الإفطار. هناك إذن شخص ما بالداخل ترك الكمبيوتر مفتوحا وسيعود بعد قليل.

انتظرت طويلا دون أن يظهر أحد. دققت الجرس عدة مرات. ودرت حول المبني مرتين. نفس القصة. الباب المحكم الإغلاق، الزجاج العاكس المعتم. ولا يستطيع أحد الدخول إلا إذا كان يعرف الشفرة.

عدت أدراجي إلي البوابة الحديدية ووقفت أتأمل الشارع. مرت عدة سيارات مسرعة ثم رجل وامرأة في أواسط العمر يترنحان من السكر. تأملاني بلا مبالاة دون أن تبدو عليهما الدهشة. فكرت في تسلق البوابة إلي الطريق. لكن قضبانها كانت عالية

ومدببة وكان ظهري يؤلمني. ثم ماذا لو نجحت في تسلقها؟ إلي أين أذهب و أنا لا أعرف المدينة. وماذا أفعل بحقيبتي. وفضلت أن أنتظر دخول أو خروج أحد العاملين أو الساكنين بالمكان.

جلست فوق حقيبتي إلي أن تثلجت أطرافي فقمت أسير حول الفناء. وبمرورالوقت بدأت أفقد الأمل. أدركت أن خلاصي لن يتحقق إلا حينما يبدأ يوم العمل في الموعد الذي حددته اللافتة الخارجية. اتجهت إلي البوابة وتعلقت بيدي الاثنتين في قضبانها ووقفت أنتظر طلوع النهار.

تعبت من الوقوف، فجلست فوق حقيبتي. وبعد قليل حملتها إلي مدخل المبني وجلست فوقها مسندا رأسي إلي الباب. غفوت قليلا ثم أيقظني إحساسي بالبرد. نهضت واقفا وذهبت إلي البوابة الحديدية.

تنقلت بين البوابة والحقيبة حتي ظهرت تباشير الفجر. وفي السادسة والنصف خرج شخص من المبني "ب"وانغلق الباب خلفه. وقبل أن أتحرك كان قد استقل إحدي السيارات. وانفتحت البوابة لتسمح له بالخروج ثم دارت منغلقة خلفه.

في السابعة تماما دارت البوابة منفتحة. وولجت الفناء سيارة بيجو صغيرة نزلت منها امرأة طويلة. نهضت واقفا وابتعدت عن الباب. واقتربت المرأة في نشاط وعصبية. ضغطت أزرار الشفرة وفتحت الباب وتركته مفتوحا فدخلت في أعقابها.

التفتت إلي مرحبة فذكرت لها اسمي. قالت: لحظة واحدة.

شغلت الكمبيوتر ثم أومأت برأسها عندما وجدت اسمي.

قالت: التأمين من فضلك.

قلت: أنا مدعو من الجامعة ولم يحدثني أحد عن تأمين.

قالت: هذا هو نظامنا.

سألتها: كم تريدين؟

قالت: 200 يورو.

أخرجت نقودي وبدأت أعد لها المبلغ.

قالت: ليس معك بطاقة ائتمان؟

قلت: لا أستخدمها.

قالت: أفضل أن تكون معك واحدة.

قلت: لكني لا أحتاج إليها في بلدي.

هزت كتفها في استسلام وأخذت مني النقود. ثم أعطتني بطاقة ممغنطة أفتح بها غرفتي. وحملت الحقيبة إلي مصعد أنيق انغلق خلفي في إحكام.

غادرت المصعد في الطابق الثاني واتجهت إلي غرفتي. وضعت الحقيبة علي الأرض ودسست البطاقة في فتحة الباب وأدرت مقبضه فلم ينفتح. قلبتها في يدي فوجدت سهمًا علي الناحية الأخري. دسستها من ناحية السهم فأضيء نور أخضر. دفعت الباب ودفعت الحقيبة إلي الداخل بقدمي. ثم انتزعت البطاقة وأغلقت الباب متنفسا الصعداء معتقدا أن محنتي قد انتهت.

كانت الغرفة مظلمة فتحسست الجدار بجوار الباب بحثا عن مفتاح النور فلم أعثر عليه. تحسست الجدران في عدة أماكن بلا فائدة. وساعدني ضوء الشارع المتسلل من

النافذة علي تمييز موضع الفراش والتليفون المجاور له. رفعت السماعة فردت علي موظفة الاستقبال وشرحت لي أن الكهرباء لا تعمل إلا إذا وضعت بطاقة الدخول في ثقب خاص بجوار المدخل. فعلت فأضيئت أنوار الغرفة.

كانت فسيحة وبها مكتب وركن للطهي بجوار الباب. نزعت البطاقة فانطفأ النور. أعدت البطاقة مكانها. وفتحت الباب ووضعت لوحة عدم الإزعاج في مقبضه الخارجي. تلفنت للاستقبال طالبا عدم إزعاجي بأي تليفون. ودون أن أتناول أدوية قبل النوم خلعت ملابسي واندسست بين الأغطية.

(4)

استيقظت عند الظهر. اغتسلت وأخذت أدوية الصباح:للضغط والمعدة والاكتئاب. تلفنت إلي الاستقبال طالبا الإفطار فقالت لي الموظفة إنه لا توجد خدمة للغرف لأنها مجهزة للخدمة الذاتية. ارتديت ملابسي وهبطت إلي البهو فوجدت البروفيسور ربيع الخطيب أحد منظمي المؤتمر في انتظاري. كان تونسيا متوسط القامة قمحي اللون، أصلع بشعرات قليلة متناثرة. ويرتدي بزة كاملة رمادية اللون.

جلسنا في البهو وحكيت له ما تعرضت له بالأمس فأبدي أسفه.

قلت: تصور أن هذا الفندق المكون من مبنيين لا يوجد به حارس ليلي أو مطعم ولا أري به من عاملين سوي سيدة الاستقبال.

قال: كل المنشآت الحديثة تتعمد استخدام أقل عدد من العمال.

كان يتكلم في بطء وبصوت منخفض ويستمع في انتباه لكنه يشرد أحيانا. والظاهر أن اللهجة المصرية كانت غير أليفة بالنسبة له فتفوته بعض المعاني.

قلت بالعربية الفصحي إني لم أتناول الافطار بعد.

تطلع في ساعته وقال: نحن الآن في موعد الغداء. ماذا تحب أن تأكل؟ يوجد هنا مطعم يقدم الأكل الفرنسي والمغربي.

قلت: أفكر في شيء خفيف.

–إذن البلو سل. في شارع مولان أسيل. مكان للطلبة يقدم سلطات وسندوتشات.

قلت: أفضل كوبا من القهوة وكرواسون.

قال: أعرف المكان لذلك.

صعدت إلي غرفتي وأحضرت مظلتي وحافظتي الجلدية بعد أن اطمأننت إلي وجود أوراقي والمخطوطة التي سأتحدث عنها. تركت البطاقة الممغنطة عند الاستقبال. وشيعتني الموظفة بنظرة متفكهة.

خرجنا إلي الشارع الهادئ. كان المبني الفندقي بطرازه الحديث نشازا بين بقية المباني القديمة.

لحظ انطباعي فقال: بواتييه مدينة قديمة جدا، تأسست قبل الإمبراطورية الرومانية وما زالت أغلب مبانيها تحتفظ بالطراز الروماني فضلا عن القوطي.

رغم ذلك كان المرور منظما جيدا. وأماكن الانتظار بحذاء الأرصفة محددة و متعددة الأشكال والقواعد.

أضاف ونحن نخطو فوق رصيف نظيف: إذا أردت مرة أن تجرب الأكلات الفرنسية المتنوعة فهناك مطاعم عديدة بشارع كارنو. لكن ربما لن تجد فرصة لأن وجبتي

الغذاء والعشاء مرتبتان لجميع المشاركين. علي العموم يجب أن تذهب إلي هذا الشارع فهو مكتظ بالبارات التي يملؤها الطلبة.

ولجنا مقهي قديما غلفت جدرانه بالخشب البني اللون. وفي الأركان دواليب مليئة بالكتب أعطت المكان طابعا بيتيا.

جلسنا في جانب يسمح فيه بالتدخين. قال: ألاحظت هذه الكتب؟

تطلعت إليها متفحصا: ماذا بها؟

قال: إنها مجرد قطع من الحجارة علي شكل مجلدات.

أحضرت لنا فتاة سمراء باسمة كوبين من القهوة و قطعة كرواسون لي.

حدثتها بالعربية متسائلا: أنت عربية ؟

أجابت: نعم. جزائرية. طالبة في الجامعة.

اكتسب ربيع فجأة شخصية البروفيسور وقال لها في تعال: ماذا تدرسين؟

ضحكت فبانت فجوة بين أسنانها داخل فمها. قالت: الفلسفة.

اقترب منا رجل نحيل متوسط القامة أسمر اللون، امتلأ وجهه بالغضون. وكان يحمل في يده كوبا من القهوة. دعاه ربيع إلي الجلوس معنا فاستجاب.

قدمنا إلي بعض وعرفت أنه أستاذ عراقي في قسم الأنثروبولوجي يدعي عبد الكريم نصيب.

سأله: كيف حالك الآن؟

أجاب: لا بـأس.

التفت ربيع إلي قائلا:عبد الكريم فقد ذاكرته تماما منذ شهور. كان يسير في الشارع ثم وقع واستيقظ في المستشفي ومضت أيام عديدة قبل أن يستعيد ذاكرته.

سألته عما إذا كان ذلك قد حدث له من قبل.

قال: مرة واحدة أثناء ضرب بغداد في حرب الخليج.

أمطرته بالأسئلة:عن عمره (40 سنة)وعما إذا كان متزوجا (من فرنسية).

– أولاد؟

– كلا. لا أريد تحمل مسئولية إحضارآخرين إلي هذا العالم. وزوجتي تشاركني الرأي.

– هل أنت مدرك للسبب فيما تتعرض له من حالات؟

– أجل.

لم تمنعني إجابته من ممارسة هوايتي في التحليل.

قلت: فقدان الذاكرة قد يعني رغبة في الانسحاب أمام الضغوط الخارجية.الغربة. الزوجة. عدم التحقق المهني والجنسي.

قال: أنت محق فيما يتعلق بالغربة. أما بالنسبة لزوجتي فنحن متفاهمان جيدا منذ البداية.

– آه ! هنا النقطة ! فاحتياجاتنا تتغير وقد ينمو أحد الطرفين في اتجاه معاكس للطرف الآخر. ثم هناك احتمال آخر. أن تكون هناك نزعات معينة ينجح المرء في كبتها بعض الوقت وبالتدريج تضعف السدادة حتي تنخلع ويحدث هذا عادة بالقرب من الخمسين.

استدركت فجأة شاعرا أني تماديت في المحاضرة: ليست هناك قاعدة فربما قبل ذلك.

وكأنما أراد تجنب أسئلتي وتعليقاتي فغير موضوع الحديث. بسط الصحيفة التي يحملها وقال: الاضطرابات امتدت إلي روين وايل دي فرانس وأحرق الشباب 315 سيارة.

قلت: كنت أظنها قاصرة علي باريس.

قال: كان الأمر كذلك في البداية. ف باريس بها أكبر تجمع من المهاجرين وأبنائهم(*).

سألتهما: لم يحدث شيء في بواتييه؟

قال ربيع: حتي الآن لا.

سألت: هل هناك تيارات إسلامية خلف الأحداث؟

قال عبدالكريم: رئيس المخابرات الفرنسية نفي أن يكون للإسلام الراديكالي علاقة بها.

انتهي من شرب القهوة فاستأذن منصرفا.

سأله ربيع دون تكلف: هل دفعت حسابك؟ سأقوم بذلك إن كنت لم تفعل.

أكد عبدالكريم أنه فعل. فقال ربيع في بساطة: لا بأس.

ثم أضاف بصوت خافت عندما ابتعد العراقي: العرب يستهبلون أحيانا فلا بد من تنبيههم.

اكتشفت في الحديث معه وجود أشياء مشتركة بيننا رغم فارق السن الذي يقارب العقدين. فكل منا عاني وما زال من فقدان الأم في سن مبكرة وقضي حياته في البحث عنها.

قال: زوجتي صاغت نفسها في دورالأم. لكنها امرأة صعبة.

فرنسية عجفاء التقطته عندما جاء من عشرين سنة ولأنه لم يكن يعرف غيرها أو لأنها أول تجربة له مع المرأة الأوروبية تزوجها وأحال كل منهما حياة الآخر جحيما.

أبديت إشفاقي علي صعوبة الحياة بالنسبة للمرأة عندما تتقدم في السن وتعتريها الأوهام والمخاوف. وضربت مثلا برعب الإصابة بسرطان الثدي واستئصاله.

قال: زوجتي تقول مازحة إنها لن تخسر شيئا لأن صدرها صغير.

تطلع في ساعته وقال: حان الوقت لأن نذهب إلي حفل الاستقبال.

أخذني في سيارة رينو صغيرة إلي إدارة الجامعة في مركز المدينة ومبني قديم تعلوه يافطة من القماش بهذه العبارة:

بونابرت في مصر

أضواء عربية جديدة

نوفمبر 2005

(5)

ولجنا قاعة واسعة ازدحمت بالمشاركين الذين وقفوا في حلقات بجوار مائدة طويلة حفلت بالمرطبات والمشروبات. تعرفت بينهم علي البرديسي، الأستاذ الفلسطيني في جامعة برنستون الأمريكية الذي التقيت به من قبل في سان فرنسيسكو(**).
ولاحظت أنه أضاف مزيدا من الكيلوات إلي جسده الضخم وتدلي جانب من كرشه فوق حزام بنطلونه.

كان هناك اثنان آخران التقيتهما في ندوات مختلفة،أحدهما لبناني بشعر أبيض ناصع. والآخر سوري بعوينات منزلقة فوق أنفه. وتعرفت علي مفكر مغربي من صوره المنشورة في الصحف. وكان يكتب فيها باستمرار مدافعا عن القضية الفلسطينية.

كما كان هناك مصري يدعي رفيق سليمان ألقاه لأول مرة وكنت سمعت عنه كثيرا. فقد طرده السادات من الجامعة المصرية لاتجاهاته اليسارية واستقر في باريس. كان متوسط القامة ذا شعر أشعث يتخلله اللون الأبيض بكثرة ويرتدي عوينات بالية الإطار. وكنت أحترم عمله رغم أني لم أوافق علي بعض أطروحاته الخاصة بتفسير مراحل معينة من التاريخ المصري.

وقفنا في شبه دائرة من الأساتذة الفرنسيين والعرب ولحظت شخصا أسمر اللون ممشوق القامة بقصة شعر عسكرية وكتفين قويتين ثبتت في أذنه سماعة.

خاطب المفكر المغربي بلهجة شامية وبصوت عال بلغ مسامع الجميع: كانت برقية التهنئة التي أرسلتها لرئيس إسرائيل جيدة ولقت صدي طيبا.

اصفر وجه المغربي وتراجع خطوة إلي الوراء وهو يتلفت حوله محرجا.

سألت ربيع عن المتكلم فقال إنه لا يعرفه. وتبادل الهمس مع فرنسي بجانبه ثم همس لي بعد قليل إنه من السفارة الإسرائيلية في باريس.

– وماذا يفعل هنا؟

– إنه مشارك في مداخلات الندوة.

قلت: لم يرد له ذكر في قائمة المشتركين.

– القائمة الكاملة لم تعلن إلا منذ دقائق.

اتخذ عدد من الفرنسيين أماكنهم خلف منصة في صدر القاعة. واستدرنا نحوهم. كانوا يرتدون جميعا ملابس كاملة ويبدو من هيئتهم أنهم من الرسميين. وبالفعل كان أول المتحدثين مدير الجامعة. وألقي كلمة طويلة ترحيبا بنا. وذكر أن جامعة بواتييه تأسست عام 1431، وهي ثاني أقدم جامعة في فرنسا واستضافت بين طلابها وأساتذتها كل من رابليه وديكارت وفرانسيس بيكون وفوكو. وهي موزعة بين ثلاثة مراكز رئيسية أحدها موقع جديد في أطراف المدينة. وقال إن بها 27 ألف طالب وهو رقم قياسي لمدينة لا يزيد تعداد سكانها علي تسعين ألفا.

تلاه ممثلو الجهات المختلفة التي شاركت في تنظيم المؤتمر: مديرة معهد الدراسات الشرقية وعميد كلية الآداب ومحافظ المدينة وممثل البلدية ومدير المكتبة العامة. كانت كلماتهم روتينية مملة وحريصة علي تأكيدالتعاون بينهم، وأن العمل الجماعي هو المسئول عن نجاح المؤتمر (الذي لم يبدأ بعد!). وتذكرت مؤتمرات البلدان الاشتراكية وغرامها بأمثال هذه المواقف. وأنهي مدير الجامعة الاستعراض قائلا: يكفي هذا الآن فلابد أنكم اشتقتم لتجربة أكلات بواتييه.

ضحكنا جميعا في ارتياح وشرعنا نتحرك في اتجاه الباب. وكنت أبحث بعيني عن ربيع عندما تقدم مني رجل نحيل يرتدي بنطلون جينز أزرق وسترة صوفية من الكاروهات. كان له وجه مستطيل وأنف مدببة. وقدم لي نفسه بعربية جيدة علي أساس أنه أستاذ في جامعة إكس الفرنسية.

ناولني بطاقة باسم جاك لادو، واعتذرت بأني لا أحمل معي بطاقات.

قال: لكن معك المخطوطة التي ستتحدث عنها؟

أجبت: نعم. صورة منها.

قال: أيمكنني استعارتها؟

قلت بالطبع. لكني سأحتاجها عند الحديث.

فتحت حقيبتي وأخرجت المخطوطة وناولتها له.

أخذها شاكرا وهو يقول: سأعيدها إليك في الصباح.

انضم إلي ربيع عند المدخل. وعرفت منه أن اتصالات دارت في الكواليس مع منظمي المؤتمر، أسفرت عن الاتفاق علي انسحاب الدبلوماسي الإسرائيلي مراعاة لمشاعر المشاركين العرب.

خرجنا إلي الطريق وندمت فورا علي أني لم أجلب مظلتي. وبسط ربيع مظلة صغيرة الحجم سرنا تحتها مسافة قصيرة.

ولجنا مطعما مكسيكيا فهاجمتنا روائح فطائر التورتيلا الطازجة. وكان النوادل يتحركون بخفة وسرعة حاملين أطباق الانشيلاداس التي يتصاعد منها البخار.

جاءت جلستي إلي جوار مجموعة من الأساتذة الفرنسيين تتزعمهم عجوز متصابية. كنت متعبا ومتوجسا من الحديث المحتوم: الأسئلة عما يجري في مصر وعن الخطر الإسلامي.

تجنبت أي احتكاك أوتواصل بالمرأة التي تجلس مقابلي أوالكهل الذي جلس إلي يساري. لكنه قدم نفسه إلي قائلا إنه متخصص في تاريخ إسبانيا والبرتغال في العصور الوسطي. وبعد قليل بدأ يذكر الكلمات العربية الموجودة في اللغة البرتغالية. وأنقذني وصول الطعام.

حرص ربيع علي الجلوس إلي مائدة أخري بجوار عدد من الأشخاص المهمين في الغالب وامرأة أربعينية سمراء ذات شعر قصير، وبلوفر أسود ذي رقبة مطوية يضغط علي صدرها. كانت متوسطة الطول ممتلئة الجسم، ريانته، أزاحت شعرها البني إلي الوراء، وجمعته خلف رأسها في خصلة علي هيئة ذيل الحصان. وكان وجهها ملفتا للغاية. أهم ما فيه فم ممتلئ واسع يدعو للتقبيل وعينان لامعتان عابثتان بهما ظل لنظرة ساخرة أومتواطئة. وطفا وجه جمالات؟(***) علي الفور في ذاكرتي.

غادرنا المطعم في جو بارد. وكان المطر قد توقف.عدنا سيرا علي الأقدام إلي حيث ترك ربيع سيارته. سألته عن المرأة فقال إن اسمها إيزابيل، وهي مدرسة للأدب الألماني.

شعرت ببرودة غرفتي بمجرد أن دخلتها. وبحثت عن مفتاح التكييف وأدرته. فتحت التليفزيون فانهمرت علي الاعلانات. ثم جاء مسلسل بوليسي أمريكي. تنقلت بين أكثر من عشرين قناة. كانت أنباء الاضطرابات وصور السيارات المحروقة تتكرر في كل واحدة.

استمعت شاردا إلي مقابلة مع مخرجة سينمائية، ثم انتبهت عندما بدأ عرض فيلم غريب يصور وجه امرأة أثناء استمنائها. اقتصر التصوير علي وجه المرأة دون بقية جسدها. وركز علي تعبيروجهها وهي تحاول استجلاب صورة ما في مخيلتها ثم وهي تستجيب لها. وساهمت الموسيقي في إضفاء جو حسي جميل علي المشاهد التي لم يكن بها ما هو مبتذل.

انتهي البرنامج، فخلعت ملابسي. غسلت أسناني وابتلعت قرص الدورة الدموية وقرص آخر للدورة الهضمية وثالث للجهاز العصبي.ثم استلقيت بين الأغطية. فكرت في إيزابيل، ثم جمالات إلي أن غفوت <

هوامش

(*) تضم باريس 9 ملايين نسمة (يعيش مليونان ونصف مليون نسمة منهم في قلب المدينة، بينما يقطن الضواحي التي تحيط باريس ستة ملايين ونصف المليون نسمة). وتتكون هذه الملايين التسع من العديد من الأعراق والأجناس أكبرها وأشهرها كتلتا المهاجرين من الشمال الإفريقي (الجزائر والمغرب وتونس) والشرق الأوسط، والمهاجرون الأفارقة الذين يشكلون حوالي 7 ملايين مهاجر، إضافة إلي مليوني مهاجر آخر من جنسيات وجذور أخري صينية وهندية وأمريكية لاتينية. ينخرطون جميعاً في كتلة العمل الفرنسية.

عدد المهاجرين الشرعيين لفرنسا والذين تجنسوا بجنسيتها وحصلوا علي إقامات قانونية وانخرطوا في القوي العاملة الفرنسية بشكل دائم ومقنن حوالي 5 ملايين

إنسان، أما المهاجرون غير الشرعيين الذين لم يسووا أوضاعهم بعد فيقدرون بأربعة ملايين، يمثلون صداعاً مستمراً في رأس الحكومات الفرنسية المتعاقبة والبرلمان والمجتمع بأكمله ما بين مؤيد لبقائهم ومعارض لتواجدهم، (من مقال لحمزة قناوي).

(**) راجع "أمريكانلي".

(***) راجع تفاصيل العلاقة مع جمالات في "أمريكانلي"

استمتعت بحمام الصباح الساخن الجميل. ثم ذهبت إلي المقهي القريب فأخذت كرواسون وفنجان قهوة. ووفد عبد الكريم العراقي حاملا صحف الصباح.

سألته عن الأخبار عندما انضم إلي.

قال: لا تسر. فقد امتدت الاضطرابات من باريس إلي بقية المدن. وأحرقت مئات المركبات وقتل شخص واحد علي الأقل بواسطة الثائرين. كما اعتقل منهم عدة مئات.

لحظت أنه يرتدي قميصا أزرق ورابطة عنق حمراء وحذاء من جلد الثعبان الرمادي. رآني أرمق ملابسه في استغراب فقال: كنت أستقبل أختي القادمة من بغداد. تصور أني لم أرها منذ 23 سنة. لم تتمكن من مغادرة العراق إلا بعد سقوط صدام.

انتقل الحديث إلي وحشية النظام البعثي والجرائم التي ارتكبها صدام ضد الشيعة والأكراد. واستعرض تفاصيل الاجتماع الشهير في سنة 1979 الذي رأسه صدام في بزة بيضاء مطلا من منصة مرتفعة علي قاعة امتلأت بقادة حزب البعث. وكان ينادي أسماءهم واحدا بعد الآخر فيصيح الواحد منهم:والله العظيم أنا مو خاين سيدي. لكنه يقتاد إلي خارج القاعة حيث يعدم في الحال.

قال بلهجته العراقية الثقيلة: يوما أمسك برأس صديقه عدنان وأخذ يخبطها في الحائط حتي تفجر منها الدم.

قلت وأنا أزدرد قهوتي: يخيل إلي أن هناك شيئا من الشراسة في سلوك العراقيين بشكل عام.

لم يعقب وظل صامتا حتي حسبته قد غضب ثم قال لي: في وقت من الأوقات تبني صدام وجود العمال المصريين في العراق، مما أثار حفيظة العراقيين وانتشرت الاعتداءات عليهم.

– أذكر ذلك كانت التوابيت تصل يوميا إلي مطار القاهرة.

قال: كان قتلهم يتم بتدبير المخابرات العراقية من أجل امتصاص غضب العراقيين. فقد اشتهر المصريون بفهلوتهم ووسائل تحايلهم علي الكسب. تعرف ماذا كانوا يفعلون؟

لم ينتظر ردي ومضي قائلا: عندما لا يجد أحدهم عملا يقف أمام إدارة الجوازات والبصمة حاملا منشفة وصابونة ودلوا به مياه ليغسل أيدي الخارجين مقابل دينار للفرد.

أدركت أنه تعمد أن يرد لي الصاع صاعين فلم أعقب بشيء. كان ذاهبا إلي المؤتمر فمشينا سويا حتي معهد الدراسات الشرقية الذي تعقد به جلساته. وهو مبني قديم بجوار كنيسة بالغة القدم.

ولجنا قاعة واسعة امتلأت بالمقاعد وازدانت جدرانها بلوحات خطية تحمل تواريخ الحملة الفرنسية علي مصر. تبدأ بالغزو في 2يوليو 1798 ثم رحيل نابليون بعد

سنة، في 22 أغسطس 1799، حتي الانسحاب التام للجيش الفرنسي في 15 يوليو 1801.

هرع إلي أستاذ جامعة إكس وأعاد مخطوطتي شاكرا. ولاحظت أن عينيه حمراوان من قلة النوم. وبدا لي الحضور مزيجا من الطلبة والأساتذة. ولم أر أثرا لايزابيل. كما لم يكن هناك أحد من رسمي الأمس.

صعدت إلي المنصة ووجدت المقعد المخصص لي إلي يمين مديرة المعهد التي رأست الجلسة.وفوجئت بالدبلوماسي الإسرائيلي جالساً إلي يسارها.

ألقت المديرة كلمة قصيرة قدمتني فيها. ثم تركت لي مجال الحديث.

شعرت بالتوتر يسود القاعة. وبدأ قلبي يخفق بقوة وتملكني إحساس العجز الذي طاردني طول حياتي ودفعني للتهرب من المواجهة. لكني تفانيت في مقاومته.

استهللت كلمتي بالإشارة إلي تركيبة المشاركين ملاحظا غياب فعاليات مهمة مثل باحثة مصرية لها دراسات عديدة عن الحملة الفرنسية، بينما يوجد البعض "الذين ليسوا عربا ولا مستشرقين ولا باحثين".

كانت إشارتي واضحة للدبلوماسي الإسرائيلي.

ساد صمت ووجوم ثم طلب الأستاذ اللبناني ذو الشعر الأبيض الكلمة من القاعة وقال إنه يستغرب وجود موظف بالسفارة الإسرائيلية في مؤتمر علمي يناقش الدراسات العربية. وأضاف: علي حد علمي إسرائيل ليست دولة عربية بل تحتل دولا عربية. وأنا أحتج علي المعهد لأنه لم يعلمنا بوجود الدبلوماسي الإسرئيلي حتي نستطيع أن نقررالحضورمن عدمه.

طلب أستاذ آخر، من جامعة الرباط المغربية، الكلمة وقال: نحن لسنا ضد الحوار ولكن هذا المكان ليس للحوار السياسي. إننا نرحب بالصديق الإسرائيلي لكن الجلسة الآن حول الدراسات العربية، وفي وسعه أن يجلس مع الحضور كمستمع.

وقف رفيق سليمان قائلا: الموقف الذي أبداه زميلي اللبناني ليس موقفا فرديا و إنما هو موقف الأساتذة العرب والمشاركين في الندوة.

انتفض البرديسي واقفا وصاح: أنا لم أتفق مع أحد ولم يستشرني أحد و أنا ضد كلام الزميل اللبناني الذي يزج بالقضايا السياسية دون موجب.

أخذت مديرة المعهد الكلمة فقالت إن دعوة الدبلوماسي الإسرائيلي كانت استجابة لطلب من سفير إسرائيل في باريس بالأمس.

ناولت الميكروفون للإسرائيلي فقال علي الفور: لقد ترك جيش نابليون بصمات الثقافة والتكنولوجيا في مصر وفلسطين التي كان لها كان لها أكبر الأثر في إعادة الحياة للشرق الأوسط..

تصاعدت همهمات من القاعة فتوقف عن الحديث ثم قال:أنا أحترم رأي الباحثين العرب ورغبتهم في ألا أشارك معهم في موضوع ذي أهمية للجميع، وعموما أنا علي استعداد للإجابة عن أي سؤال.

ساد الصمت والترقب. ولم يتطوع أحد للحديث فأعطت المديرة الكلمة لبروفيسور فرنسي في جامعة السوربون.

كان في منتصف الخمسينيات وتحدث طويلا عن حرية التعبير والتسامح والانفتاح علي الآخر، ضاربا المثال بنفسه إذ قال إنه ولد يهوديا في جنوب أفريقيا لكنه لم يسجن

نفسه في هذا الإطار. وتمني أن يتخلص المثقفون العرب من إصرارهم علي إلحاق صفة "العربي" بكل شيء.

طلب اللبناني الكلمة واستنكر اللهجة الأبوية التي استخدمها المتحدث فاعتذر علي الفور.

أعطت رئيسة المنصة الكلمة لربيع فدافع عن المعهد قائلا إن من حقه أن يوجه الدعوة لمن يريد. وهنا قاطعته الرئيسة قائلة إن الموضوع حسم.

توقعت أن يكون دوري في الكلام قد حان لكن مديرة المعهد أخذت الميكروفون. كانت ممتلئة الجسم حد البدانة ذات وجه مستدير لطيف الملامح. تحدثت طويلا عن تاريخ المعهد وعن المؤتمرات التي نظمها ومساهماته في الاحتفال منذ سبع سنوات بمرور مائتي سنة علي الحملة الفرنسية علي مصر. كان واضحا أنها تحاول إزالة الأثر الذي ترتب علي مناقشة موضوع الدبلوماسي الإسرائيلي.

عندما انتهت، تطلعت إلي ساعتها وقالت: كان المفروض أن نستمع إلي البروفيسور شكري لكننا أضعنا وقتا طويلا وقد اقترب موعد الغداء ولهذا أقترح رفع الجلسة.

لم يعترض أحد فغادرنا القاعة. اقتربت من رفيق سليمان وحبيبته. أثني علي كلمتي التي وضعت الأمور في نصابها – كما قال – ثم سألني:أخبار مصر إيه؟

قلت: زي ما هي.

وضع يده علي مرفقي وسرنا معا. مرت بنا سيارة تحمل قاربا فوق ظهرها.

قال: هل رأيت القارب؟ في الغالب سيستعمل مرة واحدة في السنة. لكن الفرنسي مهتم بالحصول عليه ويعتبر ذلك انجازا. ويشكو في زهو داخلي من متاعب اقتنائه: الرخصة والضريبة والصيانة... إلخ.

جذبني من ذراعي عندما أوشكت أن أتعثر عند حافة الرصيف وهز رأسه عدة مرات متمتما: إنه الفراغ الداخلي. الواحد منهم يحاول ملء هذا الفراغ بامتلاك مزيد من الأشياء والاشتراك في سباق حولها دون احتياج حقيقي. وقد حاول مرة أن يملأه بالجنس إلي أن انفجر طاعون الإيدز.

سكت ثم قال: ما علينا. احكي لي عن مصر.

– أكيد تعرف كل شيء من الصحف.

– فعلا. انهيار العمارات وسقوط الطائرات والتفجيرات الإرهابية.

حدثته مع ذلك عن ارتفاع الأسعار والفساد وتدهورالتعليم في المدارس والجامعات وانتشار العشوائيات وكابوس السحابة السوداء واختناق المرور والأغذية الفاسدة والمنتجات الزراعية المسرطنة وطوابيرالخبز.

قلت: هل تحب حديث الأرقام؟ هناك 38 مليون مصري يشربون مياها ملوثة بالصرف الصحي و6000 يموتون كل سنة في حوادث الطرق و42 مليار جنيه ضاعت في قروض بلا ضمانات من البنوك وهناك شخص واحد احتكر حديد التسليم ورفع سعره من 1200 جنيه للطن إلي 3150 جنيهاً.

لم أمل من حديث الأرقام التي أحفظها عن ظهر قلب: في السجون عشرون ألف معتقل دون محاكمة. وبلغت ديون مصر 674 مليار جنيه ولدينا 6 ملايين عاطل ويعاني 12٪

من السكان من فيروس سي وتحدث مائة ألف حالة سرطان كل عام ويشكو الملايين من الفشل الكلوي.

تصورت أنني أشبعت جوعه إلي المعلومات وأننا سننتقل إلي حديث آخر لكنه أبدي عجبه: كيف يتحمل الناس كل ذلك؟

– نحن نملك مقدرة كبيرة علي التحمل. لكن هذه القدرة بلغت أقصاها. ألم تسمع عن المظاهرات التي هتفت ضد الرئيس؟ أساتذة الجامعة انضموا إلي مقاطعة الاستفتاء علي التعديل الدستوري وعلي انتخاب مبارك لدورة رئاسة خامسة. والقضاة تحدوا السلطة. وصار من المألوف أن تجد مانشيتا في صحيفة معارضة يقول إن الحكم يحتضر وآخر يدعو إلي محاكمة الرئيس ومصادرة ثروته بدلا من انتخابه. واتسعت دائرة المعارضة علي الإنترنت.

ضحكت قائلا: أحد المدونين علي النت قال إن استبدال الرئيس بغيره سيثير مشكلة كبيرة لأن حوالي 80٪ من المؤسسات الحكومية والميادين والمدارس والحدائق والساحات الشعبية والكباري تحمل اسم الرئيس فلو تغير "حتدخل البلد في بعضها" –علي حد تعبيره– إذ سنغير كل شيء باسم الرئيس الجديد.والحل أن نختار رئيسا جديدا اسمه مبارك أيضا!

ولجنا مطعما في قبو كنيسة يقوم بالخدمة فيه صبيان في ملابس الرهبان. وكان أغلب الجالسين حول مائدة طويلة أساتذة جامعيين تدورأعمارهم حول الستين.

جلست بين رفيق وعبد الكريم. كنت قد وقعت في الفخ.

قال رفيق: قرأت مقالا للدكتورالذي يدعي أن جميع الاكتشافات العلمية الكبري سبق ورودها في القرآن الكريم. قال إن زلزال تسونامي الذي راح ضحيته مئات الآلاف من البشر هو عقاب من الله علي الذنوب التي ارتكبوها.

أدلي عبد الكريم بدلوه: وصفرالمونديال.

قلت: اقترام أن تقوم مصر بتنظيم المونديال هو المفاجأة وليس الصفر فمعناه أن النخبة الحاكمة لا تدرك أن التدهور الشامل لا يشجع علي نجاح تنظيمه.

قال رفيق: ألا ينتبه أحد إلي أهمية تحقيق اكتفاء ذاتي من المحاصيل الاستراتيجية خاصة القمح؟

قلت: ليس ذلك في مصلحة مافيا المستوردين. نحن نستورد الآن كل شيء: القمح والذرة والألبان والزيت والسكر والعدس والفول وحتي الترمس. كل مكونات صناعة الدواجن مستوردة من الخارج بدءًا من الكتاكيت.

لاحظت أن المائدة هي الوحيدة المشغولة. وذكرت ملاحظتي لربيع فقال: لولا المؤتمر ما جاء هنا أحد في هذا الوقت من السنة. فهو يعتبر مناسبة لتنشيط أوجه الحياة في المدينة من مطاعم وفنادق وحوانيت ومواصلات.

أقبلت علي الطعام المكون من قطعتي سمك وأرز ومشروم ولمحت في طرف المائدة رأسا أشقر الشعر، عقد خلفه علي هيئة ذيل حصان، فوق وجه وسيم بعينين زرقاوين، وأذنين يتدلي من كل منهما قرط ذهبي، وشفتين ممتلئتين ممطوطتين تمنيت لو أتيح لي تقبيلهما.

اشترك أستاذان فرنسيان أمامنا في مناقشة حول أحداث الشغب، وقال أحدهما إن الجميع كان راضيا عن الأحوال. لكن الأحداث أثبتت أن هناك شوقا لقيم ثورة الستينيات. وأبدي الثاني تشاؤمه. قال إن ابنته شاركت في مظاهرات ثم أصابها اليأس من إمكانية فرض أي تغيير. وعاد الأول يؤكد أن العالم سيتغير لأن التاريخ يتألف من دورات.

أكلنا بسرعة وأنا ما زلت أتأمل الرأس الشقراء.وعندما شرعنا في مغادرة المائدة نهض الرأس الأشقر كاشفاً عن صدر مستو بلا بروز. ثم ذراعين مفتولتي العضلات. وهنا أدركت أنني أمام رجل!

عدنا إلي قاعة المعهد. واتخذت مكاني إلي المنصة بجوار مديرته. ولم أر أثرا للدبلوماسي الإسرائيلي بين الحاضرين.

طلب شاب فرنسي من القاعة الكلمة. وقال إنه يتساءل عن الدافع لعقد مؤتمر بهذا العنوان في هذا التوقيت.

أجابت مديرة المعهد: لقد جرت احتفالات كثيرة بمرور مائتي عام علي الحملة، أهمها ندوة علمية كبيرة بالمعهد الفرنسي والمتحف الوطني للتاريخ الطبيعي في يونيو 1998 عنوانها "الحملة علي مصر مشروع تنويري" أشرفت علي تنظيمها ونشر أعمالها أكاديمية العلوم وأكاديمية الاداب. لكنها لم تكن موفقة تماما إذ قاطعها أغلب الأساتذة المصريين. ومنذ ذلك الحين ظهرت أبحاث واكتشافات جديدة خاصة في العالم العربي.

لم يقتنع الشاب بهذه الإجابة وقال: أخشي أن يكون السبب هو الاحتفال بمرور مائتي عام علي تتويج بونابرت إمبراطورا علي فرنسا في 1805. وهي مناسبة لا أظن أحدا من

الفرنسيين أو العرب يسعد بالاحتفاء بها. فعلينا أن نتذكر دائما أنه بعد تتويجه ألغي الصحف الحرة وأعاد الرق الي المستعمرات الأمريكية وجرد فرنسا من كل الحريات وعندما انهار حكمه في 1814 ترك 25 ألف سجين بينما كان عدد السجناء في سجن الباستيل عند اقتحامه سنة 1789لا يزيد علي خمسة.

ارتبكت مديرة المعهد قليلا وخلعت نظارتها وأدارتها بين يديها ثم ارتدتها من جديد وقالت: إنها مجرد مصادفة كما أنه ليس من الضروري أن تكون المؤتمرات العلمية مرتبطة بمناسبة ما.

ساد الصمت وأتيح لي أخيرا أن أتحدث.

قلت إن ورقتي تتناول مخطوطة اكتشفت حديثا لأحد تلاميذ المؤرخ المصري المعروف عبد الرحمن الجبرتي وقمت بتحقيقها.

شرحت كيفية الاكتشاف وخطوات التحقيق الذي قمت به للتأكد من صحة المخطوطة ثم استطردت:

–تتناول المخطوطة يوميات تلميذ للجبرتي لا نعرف اسمه وهو من جنوب مصر جاء إلي القاهرة هربا من الطاعون والتحق بخدمة تاجر فرنسي ثم تلقي دروسا علي الشيخ الجبرتي في الأزهر وضمه الشيخ إلي بيته تلميذا له عندما لمس نجابته. وتبدأ المخطوطة بيوم معركة إنبابة في 22 يوليو 1798 التي تم بها غزو القاهرة. ثم تصف الأيام الأولي للاحتلال الفرنسي وكيف قرر الجبرتي تأليف كتاب بعنوان "مدة الفرنسيين في مصر". وقام التلميذ بتقليده فسجل يومياته هو الآخر.

وقلت إن يوميات التلميذ تلقي الضوء علي شخصية الجبرتي. فقد صار عضوا في الديوان الذي أنشأه الفرنسيون من أعيان القاهرة، وبرر ذلك بأنه سيكون قريبا من مصادر الأخبار لمصلحة كتابه ويتلافي بطش الفرنسيين. كما أنه لم يتعاطف مع حركات التمرد والثورة وفي نفس الوقت حافظ علي صلاته بالمماليك المطاردين والفارين.

وبفضل إلمامه باللغة الفرنسية يلتحق صاحب اليوميات بمكتبة المعهد حيث يتعرف علي زوجة ضابط فرنسي أصبحت فيما بعد عشيقة له ولنابليون أيضا. ومن خلال هذه العلاقة نتلمس جوانب من شخصية القائد الفرنسي. كما نري اختلاف الثقافتين فيما يتعلق بالموسيقي وبالموقف من المرأة. فبينما كانت جارية الجبرتي السوداء تستسلم للتلميذ دون كلمة قامت علاقته مع الفرنسية علي أساس متحضر.

ويعمل الجبرتي علي إلحاق تلميذه بالحملة السورية ليبعث إليه بأخبارها لكنه لا يدون شيئا منها في يومياته. فقط الراوي الغامض هو الذي يفعل فيعطينا صورة دقيقة لأحداث الحملة وما ارتكبه بونابرت خلالها من مجازر وحشية والأكاذيب التي كان يبعث بها إلي الحكومة الفرنسية والديوان المصري عن انتصاراته المزعومة.

ويواصل الراوي يومياته حتي انسحاب الفرنسيين وعودة الأتراك والمماليك (1)

هوامش

(1)راجع تفاصيل اليوميات في «العمامة والقبعة» من نشر دار المستقبل العربي بالقاهرة 2007

وأشرت إلي أن خطاب المؤرخ الصغير مجرد من الحماسة العاطفية ويميل إلي الاقتصار علي ذكر الوقائع دون تحليلها أوإضفاء صبغة وطنية أو دينية عليها.

وقلت: تنبع أهمية المخطوطة من أن مؤلفها يذكر الكثير من تفاصيل الحياة اليومية. ومنها تبرز صورة للبلد مختلفة عن الصورة التقليدية التي نشأنا عليها. فقد أجمع المؤرخون السابقون علي أن مصر كانت بلدا يسوده الظلام وجلب إليه بونابرت الحضارة. لكن المخطوطة ترينا كيف كانت مصر في ذلك الحين محتكة بالعالم من خلال التجارة الدولية وأنها كانت تموج بالتيارات وعلي شفا تغيير جذري أحبطته الحملة. كما تلقي المخطوطة أضواء علي شخصيات مثيرة للجدل مثل المعلم يعقوب القبطي الذي تحالف مع الفرنسيين أملا في تحقيق ما أسماه "استقلال مصر". وكفاريللي القائد الفرنسي الذي لم تمنعه أفكاره الإنسانية من الدفاع عن الحملة وتبني رسالتها.

ضربت أمثلة أخري عديدة للمنظور الذي التزمه المؤرخ المجهول ثم أنهيت حديثي قائلا إنني أسعي إلي ترجمة هذه المخطوطة إلي اللغة الفرنسية ليستفيد منها الجميع.

(7)

افتتح أستاذ جامعة إكس،الذي أخذ مني صورة المخطوطة، النقاش وقال وهو يبتسم لي معتذرا إن لديه شكوكا قوية في صحتها.

صعقت ولم أشعر حتي بالهمهمة التي سرت وسط القاعة.

استطرد الأستاذ: أنا آسف لأن أقول هذا ولكن لدي أسباب قاطعة تؤكد ما توصلت إليه من استنتاج.

ران الصمت علي الجميع.

قال إنه عندما سمع – أثناء التحضير للمؤتمر –بأن المخطوطة ستكون محل نقاش تذكر حديثا دار بينه وبين أحد معارفه المتقدمين في السن. كان هذا الشخص علي معرفة بإحدي قريبات بولين لسلي عشيقة نابليون وبطلة المخطوطة المعروضة.

توقف لحظة محسوبة وهو يطوف بعينيه بين الحاضرين. وبدا لي أنه مدرب جيدا علي التحدث إلي الجماهير والتأثير عليهم.

استأنف الحديث قائلا:الحاصل أني نجحت في الاتصال بهذه القريبة وقمت بزيارتها ووجدت لديها مجموعة من الكتب والمخطوطات القديمة التي آلت إلي والديها بعد وفاة بولين. وبين هذه عثرت علي ما أعتقد أنه المخطوطة الحقيقية لتلميذ الجبرتي.

تطلعت جميع الأنظار إلي. ورأيت في عيون البعض استهزاء بهذا المصري الدجال الذي لم يستطع اكتشاف زيف المخطوطة بل ربما يكون قد اختلقها اختلاقا.

مضي الأستاذ قائلا: لقد قمت بتحقيقها بالطرق العلمية المعروفة. وتأكدت من نوع الورق وهو البندقي الذي كان معروفا أيام الحملة إذ يحمل العلامات المائية لجمهورية البندقية.كما تأكدت من نوع المداد أيضا.

وابتسم في انتصار وهو يستطرد: وبالأمس تفضل البروفيسور شكري بإعارتي صورة من مخطوطته وسهرت حتي الصباح أقارن بين المخطوطتين.

توقف لحظة مدركا مدي الاهتمام الذي أثاره لدي الحضور.

قال: هناك بالطبع أوجه شبه كثيرة بين المخطوطتين، فهما لشخص واحد هو تلميذ الجبرتي بالتأكيد. لكن أيهما هي المخطوطة الأصلية؟

أهمية هذا الأمر أن المخطوطة التي حصلت عليها من قريبة بولين لا توجد بها أي اشارة إلي علاقة بولين الجنسية بتلميذ الجبرتي، ولا إلي المجازر المزعومة للجيش الفرنسي في سوريا.

ناولني مخطوطته قائلا: لا مانع عندي من أن يتولي الأستاذ فحصها.

رفعت الجلسة ربع ساعة وبينما كانت القاعة تطن بالأحاديث الجانبية.انتحينا جانبا أنا والبروفيسور لادو ومديرة المعهد وشخص آخر. تناولت مخطوطته وتفحصتها بعناية.

كان الغلاف بلا عنوان ومن الكرتون السميك المغلف بورق مزركش. والكعب من الجلد الأسود وبوسط الغلاف من الطرف شريط رفيع من القماش لغلق دفتي الدفتر بإحكام لكنه متآكل. أما الورق فكان مجموعة ملازم مصفرة اللون بسبب القدم ثبتت معا بغرز من خيط الكتان. تماما مثل مخطوطتي.

رفعت المخطوطة وبسطت إحدي ورقاتها في مواجهة الضوء. لم يكن من العسير تبين العلامة المائية المؤلفة من شعار جمهورية البندقية والتي تنتمي إلي عصر الجبرتي كما هو شأن ورق مخطوطتي.

قلبت الصفحات برفق. لم يكن لدي شك في أن الخط هو نفسه الذي كتبت به مخطوطتي كما هو شأن المداد الذي يبدو من النوع المطبوخ.

كانت أوجه الشبه بل التماثل بين المخطوطتين عديدة. فقد استخدمتا أسلوب "التوريق" حيث يتم الترقيم بالورقة وليس بالصفحة كما نعهد الآن وتأخذ الورقة الواحدة بوجهيها رقما واحدا. وكانت الصفحات مسطرة بالقلم الرصاص وفي كثير من

الأحيان لجأ المؤلف إلي تذييل الصفحة التي أنهي كتابتها بأول كلمة سيبدأ بها الصفحة التالية وهو ما يسمي بأسلوب "التلحيق" للربط بين الفقرات.

وفي المخطوطتين تبدأ كل فقرة بتاريخ ميلادي. ولا توجد مقدمة أو تعريف بالكاتب والنهاية مقتضبة كأنما لم يكن المؤلف قد انتهي من عمله.

ولم ألبث أن تبينت أوجه الخلاف بين الاثنتين. فبينما كان عدد صفحات مخطوطتي يبلغ ثلاثمائة صفحة، اقتصرت المخطوطة الجديدة علي مائتين وخمسين صفحة.وتوقفت عند مدونة 4 مارس 1800، عشية رحيل بولين من مصر نهائيا.

كما كانت هناك صفحة مكررة كأنما نسي المؤلف أنه كتبها. وكانت مخطوطتي تخلو تماما من أي تكرار.

وأوحي لي الاكتشافان بفكرة عن ماهية المخطوطة الجديدة.

قلبت صفحاتها بتمعن وتوقفت عند بعض المواضع وقارنتها بما ورد في مخطوطتي.

وضعت المخطوطتين جانبا وقلت: سأكتفي بهذا القدر من الفحص الأولي مؤقتا وأري أن نعود إلي المنصة.

استعدنا مقاعدنا وانتظرت المديرة حتي هدأت القاعة تماما ثم قالت: لقد فحص البروفيسور شكري مخطوطة البروفيسور لادو وسنستمع الآن إلي تعقيب منه.

قلت: لا شك عندي أن المخطوطة التي اكتشفها البروفيسور هي مخطوطة أصلية كما هو شأن المخطوطة التي اكتشفتها. السؤال إذن: هو تفسير اختلاف النص بين الاثنتين، فعدد الصفحات مختلف في كل منهما. لكن ليس هناك ما يدل علي تمزيق بعض

الصفحات أو اقتطاعها. فتسلسل الصفحات سليم تماما في كل من المخطوطتين. ومن ناحية أخري غابت عن مخطوطة البروفيسور تفاصيل معينة وردت في مخطوطتي.

لقد حدد البروفيسورلادو هذه التفاصيل بموضوعين: الأول هو الحديث عن علاقة المؤلف بعشيقة نابليون والثاني هو التفاصيل الخاصة بالمجازر التي ارتكبها الجيش الفرنسي في الحملة السورية.

وفيما يتعلق بالنقطة الثانية فقد وردت تفاصيل هذه المجازر في عديد من الكتب.

قلبت بين أوراقي ثم استخرجت إحداها واستأنفت الحديث: أمامي هنا ما ذكره الميجور ديتروا أحد قادة الجيش في مذكراته. فبعد أن افتخر ببسالة الجنود عند اقتحام مدينة يافا "وبرباطة جأش "قائدنا الأعلي وضباط أركان حربه وحكمتهم" مضي قائلا: "حالما استولي هؤلاء الجنود البواسل علي المدينة ودخلوها أعملوا السيف في نحو ألفي جندي من الحامية كانوا يحاولون التسليم وراح الفرنسيون يقتلون كالمجانين طول الليل حتي الصباح".

وضعت الورقة جانبا وتناولت مجلدا صغيرالحجم: معي بالصدفة مذكرات الضابط جوزيف ماري مواريه التي نشرتها دار بيير بلفون في باريس سنة 1984. وفيها وصف بالتفصيل للحملة السورية في فبراير 1899 وما جري بها من أعمال وحشية. لا مفرإذن من اعتبار مخطوطتي أكثر قربا من الواقع التاريخي من مخطوطة البروفيسور لادو. (*)

أما بالنسبة للنقطة الأولي فقد ورد ذكر عشيقة نابليون في أغلب المراجع المعتمدة. ووصفت هذه المراجع كيف بدأت العلاقة بينهما عندما أراق أحد ضباطه فنجانا من القهوة علي ثوبها، وكيف تركها بونابرت خلفه عندما غادر مصر. لكن هذه المراجع لم تتحدث حقا عن علاقة المؤرخ الصغير بها.

لم يملك لادو نفسه فصاح: هذا يؤكد أن أمرها مختلق. ويطعن في مصداقية المخطوطة كلها.

لم أعبأ بمقاطعته واستطردت: هذا الأمر بالذات يقودنا إلي استنتاج هام.فلماذا لا تكون مخطوطة البروفيسورلادو منقولة عن مخطوطتي؟

قاطعني مرة أخري: ليس هناك ذكر لاسم الناسخ كما هو مألوف في هذه الحالات.

خاطبته مديرة المعهد في حزم: من فضلك يمكنك أن تتكلم بحرية بعد أن ينتهي.

استأنفت حديثي: عندما رأيت نوع الورق والمداد وتشابه كثير من الفقرات فكرت أنها نسخة منقولة أُسقط منها عن عمد بعض التفاصيل. لم تكن أجهزة التصوير قد اخترعت بعد، أيام الجبرتي. وكانت الطريقة الوحيدة لاستنساخ الكتب هي النسخ باليد. ولما كان الخط واحدا في المخطوطتين فلا شك أن المؤرخ الصغير هو الذي قام بالنسخ.

توقفت لحظة مستعينا بنفس أساليب البروفيسورلادو. ثم تناولت مخطوطتي وقلبت صفحاتها بحثا عن موضع معين ثم قلت: يقول المؤرخ الصغير إن بولين طلبت منه الاطلاع علي ما يكتبه من يوميات. ولا يذكر لنا بعد ذلك ما فعله. هل أعطاها لها أو لم يفعل. ويحق لنا أن نستنتج الآتي: لقد كان مشغوفا بها ويريد أن يبين لها أهميته وأنه ليس مجرد تابع للجبرتي. لهذا استجاب لطلبها. لكنه لم يكن بوسعه أن يطلعها علي النص الكامل لمخطوطته. فأعاد كتابتها حاذفا منها ما يمكن أن يثير استياءها وهو الجزء الخاص بعلاقتهما. كما حذف أي إشارة إلي المذابح الفرنسية في سوريا تحسبا من وقوعها في يد فرنسية أخري مما قد يعرضه للأذي.

تطلعت إلي الحاضرين مزهوا باستنتاجي كما فعل لادو بالضبط استطردت: إن المخطوطتين تشيران إلي خوفه علي أوراقه وإلي أنه كان يلتمس لها دائما المخابئ.

أمامنا إذن مخطوطتان صحيحتان لنفس الكاتب الذي تعمد إخفاء بعض التفاصيل عندما أعد المخطوطة الثانية بل ارتكب خطأ تكرار إحدي الصفحات. وبناء علي هذا لابد من الإقرار بصحة مخطوطتي باعتبارها النسخة الأصلية.

طلب البروفيسور لادو الكلمة وقال: أنا لا أوافق زميلي المحترم علي هذا الاستنتاج. والمسألة الآن برمتها تصبح من شأن المؤسسة العلمية في مصر وفرنسا.

شعرت بالإحباط. فمعني هذا أولاً أنني لن أستطيع الاتفاق علي ترجمة المخطوطة إلي اللغة الفرنسية. وحتي لو أخفيت عن دار النشر قصة المخطوطة الأخري فإن استفسارا واحدا عني في الدوائرالأكاديمية سيكشف الأمر.وتتأجل الموافقة علي الترجمة إلي أن تحسم المناقشات بين المتخصصين صحة المخطوطة.

لم يعلق أحد فتطلعت المديرة في ساعتها وقالت: يكفي هذا الآن.

غادرنا مقاعدنا واتجهنا إلي باب القاعة. ولاحظت أن لادو قد اختفي. واقترب مني ربيع بصحبة إيزابيل التي تطلعت إلي في إشفاق.

قال ربيع: يبدو عليك الإرهاق. تعال نوصلك إلي الفندق لتستريح قليلا قبل العشاء.

لم أرحب بالعودة إلي الفندق لأجلس وحيدا أجتر مشاعري. كما أني لم أرغب في مفارقة إيزابيل.

قلت لهما عندما بلغنا سيارتها البيجو: وأنتما ماذا ستفعلان؟

تمنيت أن يدعواني لمرافقتهما.

جلست إلي جوار إيزابيل. ولاحظتها ترمقني بنظرة سريعة.

قال ربيع وهو يستقر في المقعد الخلفي: سنقضي معا بعض الوقت. جاءتني رائحة عطرها الخفيف. وتأملت يديها الممسكتين بالمقود. كانت أصابعها طويلة ورشيقة.

ساد بيننا الصمت فحاولت كسره.

قلت: لم أتذكر مناسبة تتويج بونابرت ولم أفكر في أن تكون للمؤتمر علاقة بها.

ضحكت إيزابيل، وقالت إن رئيس الوزارة دومينيك دو فيلبان مولع بشخصية نابليون وكتب مؤلفا شهيرا بعنوان "نابليون أو روح القضية".

بلغنا الفندق، فمد ربيع يده إلي قائلا: سأمر عليك في الثامنة والنصف لنذهب إلي العشاء.

صافحته ومددت يدي إلي إيزابيل لكنها مالت نحوي وقربت وجهها مني ثم طبعت قبلة علي خدي. وغادر ربيع مقعده واحتل مقعدي.

كانت الساعة قد قاربت السادسة والنصف عندما ولجت غرفتي. غسلت وجهي وأسناني. وملأت كأسا من الويسكي وأشعلت سيجارة. استعدت مناقشات اليوم. وكالعادة طرأت علي بالي حجج كان يمكن أن أستخدمها دفاعا عن مخطوطتي. ولمت نفسي علي أنها لم تخطر لي في حينها.

فتحت التليفزيون لكني لم أجد شيئا مسليا. فقد كنا في الوقت الميت الذي تعرض فيه البرامج الثانوية قبل أن تبدأ السهرة.

أغلقت الجهاز واستلقيت فوق أغطية الفراش بملابسي.

مضي الوقت بطيئا. وتطلعت إلي ساعتي عدة مرات. وفي الساعة الثامنة سمعت أصواتا ضاحكة في مدخل الفندق الذي تعلوه نافذتي. ميزت بينها صوت ربيع وضحكة إيزابيل.ثم ساد الهدوء.

في التاسعة إلا ربع تلفنت للاستقبال. وسألت عامله الهندي المهذب عن التونسي، فقال لي إنه كان هنا منذ قليل وخرج قائلا إنه سيعود بعد ثلث ساعة.

– هل كان معه أحد ؟

–أجل. سيدة.

في التاسعة تماما تلفن لي ربيع. قال إنه في غرفته وهو متعب وينوي أن يغسل قدميه ويغفو قليلا ثم يمر علي في العاشرة والربع لأن العشاء لن يبدأ قبل العاشرة والنصف.

لم أستطع أن أتصورني منتظرا ساعة ونصفًا زيادة. قلت: سأذهب الآن مباشرة لأني جائع ومتعب. سكت لحظة ثم قال: كما تشاء. العنوان عندك في كراسة المؤتمر.

ارتديت معطفي وحملت المظلة. عين لي الهندي الطريق إلي المطعم علي خريطة المدينة. ومضيت سيرا علي الأقدام وسط الطرقات القديمة الباردة.

عثرت علي المطعم بصعوبة ووجدته صغيرا ومتخصصا في المشويات. وكان خاليا من الرواد. واستقبلتني صاحبته ذات الجمال الغابر في تجهم. وتطلعت إلي متسائلة.

قلت إني من جماعة المؤتمر.

قالت: عشاؤهم سيبدأ في العاشرة والنصف.

قلت: أنا مضطر لتناول العشاء مبكرا بسبب السفر.

دعتني للجلوس في غير حماس إلي المائدة الطويلة المعدة لمشتركي المؤتمر.وقدمت لي قائمة الطعام.

اخترت شواء من لحم الغنم. وبدأ من ظننته زوجها في إعداد الشواء. وبعد قليل جاءني الطعام. وجلس الزوج بالقرب مني منهمكا في الحديث مع أحد معارفه.

كان اللحم بلا طعم وليس ناضجا بالصورة التي أحبها. أكلت بلا حماس وعندما أوشكت علي الانتهاء ظهر ربيع وحده منتعش الوجه وجلس أمامي. وعندما رآني أمضغ اللحم بصعوبة عرض علي أن نطلب إنضاجه. رفضت قائلا: إني متعب وأريد أن أنام.

تركته وحده في المطعم وعدت إلي الفندق سيرا علي الأقدام. أخذت أدويتي. وفتحت التليفزيون فوجدت فيلما عن الأشباح. أغلقته وخلعت ملابسي. غسلت أسناني ووجهي ولجأت إلي الفراش.

رأيتني أتقدم بمخطوطة رسالة الماجستير إلي حلمي عبد الله. كان متعجلا يريد الانصراف فرجوته أن يلقي عليها نظرة. أخذها وقلب فيها ثم قال: إن المراجع قليلة ويجب أن أقرأ كثيرا ثم لوح بها أمام وجهي قائلا: لا يمكن أن تكون هذه رسالة ماجستير.

قلت: هذه مسودة وأنا أريد فقط الاسترشاد برأيك أشار إلي عمليات الشطب والإضافات علي الهوامش. وشعرت بقلبي يسقط بين قدمي فمعني ذلك سنة أخري من العمل الشاق.

استيقظت مفزوعا. كانت الساعة الثانية. فتحت التليفزيون فطالعتني مباراة في كرة السلة. تنقلت بين القنوات ووجدت القناة الرابعة المشفرة متاحة، طالعني بها قضيب ضخم يتحرك مثل بستم السيارة صعودا وهبوطا في فرج امرأة. كان ذلك قرب نهاية فيلم بورنو سخيف فيما يبدو. أغلقت التليفزيون وأطفأت النور.

(8)

طغت أنباء الشغب علي صحف الصباح. فقد أحرقت بالليل 1173 سيارة وأصيب رجل شرطة بجراح. كما احترقت واجهة مستشفي. وانتشرت أعمال الشغب في مارسيليا والهافر وتولوز وليل ونيس وبوردو.واحتجزت الشرطة 600 من الشبان الغاضبين بينهم بيض وفرنسيون من أصول عربية وأفريقية.

بدأت الجلسة الأولي متأخرة نصف ساعة. ولم أر أثرا لإيزابيل. ولا رأيت رفيق سليمان أو البرديسي. وبدا الوجوم علي وجوه الحاضرين. وربما كان السبب هو أن بوردو التي امتدت إليها الاضطرابات لا تبعد أكثر من ساعة بالقطار جنوب بواتييه.

ارتقت المنصة بروفيسورة فرنسية ذات شعر أشقر متموج وسن بارزة في فكها السفلي. كانت بلا مكياج وتبدت عيونها الثاقبة من خلف نظارة طبية مزدوجة البؤرة. وكان ربيع في مقعد الرئاسة.

رأيت إيزابيل تدخل القاعة، فابتسمت لها. بادلتني الابتسامة المتواطئة وجلست في صف خلفي بعيدا عن مجال نظري. ولاحظت أنها تواجه ربيع من مكانها.

بدأت البروفيسورة حديثها قائلة: كتب كثيرون عن الحملة الفرنسية أو "البعثة" كما يصر الفرنسيون علي تسميتها. وهناك أكثر من 350 شهادة تاريخية

لمشاركين من الضباط والجنود والمدنيين. من بينهم هوويه أحد قادة الحملة العسكريين.

توقفت لحظة ثم استطردت:سجل هوويه كثيرا من التفاصيل وانضم بعد عودته لفرنسا إلي جيش نابليون وظل بالمؤسسة العسكرية حتي تقاعد في 1816 إذ تم تسريحه بعد سقوط نابليون وعودة الملكية. فانكب علي إعداد مذكراته مدافعا عن جيش الحملة وقائدها لكنه لم يتمكن من نشرها، وتداولت الأيدي مخطوطته حتي اشترتها السلطة الملكية المصرية في أربعينيات القرن الماضي وضمتها إلي الأرشيف القومي المصري. وأثناء زيارة حديثة للقاهرة التقيت بالفريق القائم علي تحقيق المخطوطة وإعدادها للنشر.(**)

توقفت لتحتسي بعضا من كوب ماء ثم استطردت: من الصفحات الأولي تبدّي أن موضوع هوويه الرئيسي هو الإدلاء بشهادته علي وجود "ملحمة بطولية "صنعها الجيش وليس القادة بمن فيهم نابليون". وربما كان هذا هو السبب في أنه لم يضم إلي مؤرخي البلاط الإمبراطوري عندما كان نابليون في السلطة.

أكد هوويه أن الحملة لم تفشل، وإنما كانت – وفتحت بإصبعين قوسي تنصيص في الهواء–"فتحا عظيما أضفي المجد والرفعة علي الجيش في عيون العالم أجمع"، حسب كلماته.وكي لا يعترف بفشل الحملة قال: إن هدفها لم يكن إقامة مستعمرة فرنسية في الشرق وإنما توجيه مصر نحو الحضارة. فلم يكن من الممكن إنقاذ البلد الغارق في ظلمات الجهل والتخلف إلا بإحداث تغيير في بنية النظام السياسي، وهو تغييرلم يكن من الممكن أن يأتي من الداخل لأن المجتمع المصري في حالة عقم تام، ومن ثم

ليس هناك مخرج إلا علي يد تدخل أوروبي. فالحملة – حسب تعبيره –"كانت الوسيلة الوحيدة للخروج من حالة التوحش والهمجية"

هوامش

(*) الترجمة العربية صدرت سنة 2000 في القاهرة عن المشروع القومي للترجمة من إعداد كاميليا صبحي

(**) يرأس هذا الفريق الدكتورة مديحة دوس ويتألف من الدكاترة إلهام ذهني وناصر إبراهيم، هنا فريد، عزة محمود وباتسي جمال الدين، التي تولت إعداد الكتاب.وصدر باللغتين العربية والفرنسية عن دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة سنة 2005 بعنوان "الحملة الفرنسية علي مصر، مذكرات ضابط من جيش الحملة".

تتكون المخطوطة من سبعة مجلدات ثانيها هو الذي أعد للنشر ويحمل عنوان "ملخص تاريخ الحملة ".

القضية الأخري لديه هي ارتفاع عدد ضحايا الجيش.وقد هاجم من أسماهم بالنقاد "المغرضين "الذين تحدثوا عن فضيحة تسميم الجنود الفرنسيين المصابين بالطاعون في يافا و"بالغوا في أرقام الضحايا". وأوضح وجهة نظره قائلا:" ليس من المفيد لشهود العيان أن يضعوا تحت عين القارئ العام كل الاتهامات المقيتة التي قذف بها بونابرت في مسألة المصابين بالطاعون". وقال إن استعصاء شفائهم هو ما حتم

إعطاءهم الأفيون لوضع نهاية لآلامهم وحتي لا يتركوا في ظل ظروف الانسحاب فريسة للعرب والترك الذين سيذبحونهم. أما مذبحة يافا فبررها بأنه كان لابد من التخلص من الأسري لعدم وجود المؤونة الكافية. وسجل دون خجل عدد القتلي من الأسري في يافا علي مدي أربعة أيام بأنه 4410 قتلي.

طلب أحد الحاضرين الكلمة و تبينت من لهجته أنه مصري. قال إنه متخصص في الآثار وإنه اطلع علي المخطوطة. وراعه أنها في المقدمة التاريخية تصف الرسول بأنه زعيم لعصابة تزايد عددها ونجحت في غزومصر وبلاد الشام. واتهمت عمرو بن العاص بإحراق مكتبة الإسكندرية في عمل " لا يصدر إلا من برابرة لا يعرفون سوي القرآن" علي حد قولها. وذلك رغم أن سافاري الذي زار مصر قبله نفي هذا الاتهام مؤكدا أن الرومان هم الذين أحرقوها. كما هاجم هوويه الدولة الأيوبية بسبب تصديها للحملات الصليبية.

عقبت البروفيسورة الفرنسية قائلة: هذه هي الآراء التي كانت سائدة في ذلك الحين والنابعة من الجهل والتحيز وهي علي العموم خارج موضوع الحملة.

توقفت لحظة ثم مضت تقول: أهمية مخطوطة هوويه تنبع أساسا من احتوائها علي إحصاء دقيق لجميع العمليات العسكرية وأعداد المفقودين والقتلي والمرضي والمنتحرين.

وسردت عدة أمثلة علي ذلك ثم فتحت مجال النقاش.

وقف البروفيسور لادو وقال: لست أنوي الطعن في مصداقية المخطوطة...

انفجرت القاعة في الضحك. وانتظرلادو حتي هدأ الضجيج واستطرد باسما: أريد فقط أن أعرف السبب في تأخر نشرها حتي الآن.

أجابت: تعذر نشر المخطوطة في عهد نابليون لأنه لم يكن يرحب بأي كتابة عن الحملة خوفا مما قد يلحقه ذلك من ضرر بمستقبله السياسي، إذ تعطي الفرصة لخصومه لفتح باب الأسئلة والمراجعة لكل وقائع الحملة مما قد يعرضه لتحمل النصيب الأكبر من أسباب فشلها. ولهذا أصدر أمرا بمصادرة مذكرات الجنرال رينيه بعد نشرها، وعمل علي نزع الوثائق والتقارير التي تدينه من دورالأرشيف الفرنسية وإحراقها. ثم ألف لجنة لمراجعة الكتب قبل نشرها. وسرعان ما ازدادت وطأة الرقابة علي النشر بإنشاء الإدارة العامة للطباعة والمكتبات التي عهد إليها بالإشراف الكامل علي الأنشطة الثقافية وتعبئة الفنانين والكتاب لتمجيد حكم الإمبراطور(1). واستمر هذا الموقف من الكتابات عن الحملة بعد سقوط نابليون إذ حظر العهد الملكي بدوره أي ذكر لنابليون. ثم مات هوويه واختفت المذكرات إلي أن عُثر عليها أخيرا.

<<<

تساءلت فتاة في مقتبل العمر:هل نستطيع أن نثق في صحتها ؟ هل المخطوطة محققة جيدا؟

أجابتها: المصريون قاموا بذلك

– المصريون؟ هل يمكن الوثوق في نتيجة عملهم؟

قالت بحدة: لقد تأكدت شخصيا من ذلك

ألقي شاب من الطلاب سؤالا طويلا حول تفاصيل الحملة السورية، لم أدرك منه سوي أنه يرغب في استعراض معلوماته. وردت عليه البروفيسورة باقتضاب ثم أعلن ربيع رفع الجلسة. ولاحظت أن إيزابيل اختفت.

توزعنا علي عدد من السيارات وركبت مع ربيع. وقام السائق بجولة في المدينة ثم غادرها من الجنوب الشرقي حتي نهر كلان و بعد لحظات طالعنا صرح الكاتدرائية حيث يمتزج الطرازان الروماني والقوطي. ثم مررنا بكنيسة القديس يوحنا ومتحف الصليب المقدس المجاور. توقفنا أمام مبني ذي واجهات زجاجية عريضة. وصعدنا إلي الطابق الثاني وولجنا مطعما أنيقا. جلسنا إلي مائدة طويلة تطل علي ميدان صغير امتلأ بالأشجار والورود الملونة.

مال علي ربيع الذي جلس في مواجهتي و شممت من فمه رائحة عطنة مبعثها الإفراط في الشراب بالأمس. قال إن هذا المكان قد يكون النقطة التي توقف عندها اندفاع المسلمين إلي قلب أوروبا. وكان الأمويون وقتها أقوي قوة عسكرية في العالم(2).

>>>

ظهرت سيدة أربعينية متوسطة الطول ذات وجه خمري اللون ضاحك الأسارير بعينين جميلتين ذكيتين تحيط بهما تجاعيد خفيفة. وكان شعرها الأسود مفروقا من الوسط ومسترسلا علي جانبي الوجه.

اقتربت منا ووقفت خلف ربيع ثم انحنت فوقه وألصقت خدها بخده بينما أحاطها بساعده من الخلف. ورأيته ينظر إلي بطرف عينه ليتأكد من معاينتي لمكانته بين النساء.

لا أنكر أني شعرت بالغيرة لكن خفف من الأمر ما لاحظته من أنها تفعل ذلك مع الآخرين وتعابثهم وأنه لا يوجد شيء حميم بينها وبين التونسي. رأيتها تجلس إلي مائدة أخري بجوار بروفيسور ضخم الجثة. استمتعت بالنظر إلي وجهها. وبعد

كأسين من النبيذ فكرت في أن أقوم وأذهب إليها وأقول لها كم هي جميلة. لكنها لم تنظرأبدا ناحيتي رغم أنني كنت دائم التحديق فيها، وبدا كأنها لا تشعر بوجودي.

جلس إلي جانبي رجل طويل القامة يحمل وجهه ابتسامة ساخرة أو طفولية في حوالي الخامسة والستين أوالسبعين برفقة فتاة قصيرة تبدو عليها البلاهة. قدمها لي قائلا: صديقتي من نيويورك. ثم همس لي بعد قليل: هل المصريون يحبون الغلمان؟. أجبت علي الفور: ليس أكثر من الفرنسيين. انتقل الحديث مرة واحدة إلي الفروق في أحجام القضيب الذكري. جاريته في الحديث قائلا إن تلميذ الجبرتي ذكر في مخطوطته أنه سأل صديقته الفرنسية عن حجم قضيب نابليون فأكدت له صغره بالنسبة للتلميذ نفسه. اغتصب البروفيسور ضحكة ثم انصرف عني تماما.

استمتعت بأكل المحار من طبق عريض به تسع قطع. وبالنظر إلي وجه الأربعينية. ثم لاحظت أن ربيع يتأمل شيئا خلف ظهري. التفت فرأيت مرآة كبيرة بحجم الجدار. واكتشفت أنه دائم التطلع إلي وجهه فيها كأنما يستمد الثقة من صورته.

(9)

لم يتجاوز الحضور في جلسة بعد الظهر ثلاثين شخصا بينهم امرأة عجفاء خمسينية تجلس في الصف الأول تطلعت نحوي في عداء لم أدرك سببه.

صافحت بروفيسورة لبنانية في الجامعة الأمريكية ببيروت وصلت في الصباح. كانت طويلة ونحيلة ذات شعر رمادي عكصته في أناقة خلف رأسها وترتدي بزة من سترة وبنطلون رماديين. جلست إلي جواري وأخرجت قلما وورقا من حافظة جلدية منتفخة. كانت تعطي الانطباع بأنها مرتبطة بأمور أكثر أهمية بعد الجلسة.

قالت لي بصوت مرتفع: جئت متأخرة لأني كنت علي موعد مع الناشر الفرنسي لمؤلفاتي.

صعد إلي المنصة البروفسور اللبناني ذو الشعر الأبيض. وقدمه ربيع مستعرضا بعض أبحاثه ثم ترك له الحديث في الموضوع الذي حدده وهو عن المؤرخين الفرنسيين الجدد.

بدأ بعرض سريع للكتابات التاريخية الأولي عن نابليون وحملته علي مصر. وقال إن أصحاب هذه الكتابات كانوا مبهورين بأسطورة نابليون ومدافعين عن الاستعمار وعن أن واجب الفرنسيين المقدس هو تحضير الشعوب ولو بالقوة.

وقال إن هذه الكتابات انطلقت من أن تاريخ مصر المعاصر يبدأ بالحملة التي كانت أساسا بعثة علمية ثقافية وليست حملة عسكرية استعمارية. وآمن أصحاب هذه الكتابات بأن المصريين انبهروا بالحضارة التي أهداها لهم الفرنسيون وأن الشعب المصري ما زال يتغني بفضائلهم حتي يومنا هذا لأن الجنود الفرنسيين علموهم الحرية وأسس الديمقراطية.

توقف ليتجول بنظراته بيننا في تحد كأنما توقع احتجاجا من الحضور الفرنسي.

تناول رشفة من كوب ماء ثم استطرد: عاشت أسطورة نابليون تتحدي أي عداء.وأصبح اسمه رمزا لمجد فرنسا. ونسي الجميع الثمن الباهظ الذي دفعته فرنسا من أجل بضع سنوات من المجد الحربي. فقد تركها نابليون مهزومة ومحتلة بعد أن استنزف دماءها لسنوات طويلة. وتأخرت عن ركب الثورة الصناعية التي كانت قد بدأت في انجلترا بعد أن فقدت الملايين من أبنائها. واستشهد بالكاتب الشهير شاتوبريان – الذي

عاصر نابليون – وقال إن مجده "لم يكلفنا الا نحو مائتين أو ثلاثمائة ألف رجل كل عام. ولم ندفع إلا ثلاثة ملايين من جنودنا ثمنا له".

ومضي يقول: إن الحقائق بدأت تفرض نفسها بعد حوالي 200 سنة. فقام جيل المؤرخين الفرنسيين الجدد الذي ولد بعد الحرب العالمية الثانية بتحطيم الأسطورة. وضرب مثالين لذلك فقد كشف المؤرخ مارسيل دونان أن نابليون انتزع من البلاد التي احتلها – مثل إيطاليا –امتيازات للمنتجات الفرنسية وألحق الدمار باقتصادها.

وأكد فرانسوا فوريه (3) أن أسطورة القائد الذي لم يهزم صنعت من خلال أكاذيب عن انتصارات وهمية ومبالغات دعائية كان الفرنسيون علي استعداد نفسي لقبولها مثل وصفه بأنه "يطير كالبرق ويضرب كالصاعقة فهو في كل مكان ويري كل شيء."

<<<

وقال إن فوريه وضع سنة 1965، كتابا عن الثورة الفرنسية بالاشتراك مع زميله ديني ريشيه، عدّد فيه المجازر التي رد بها الفرنسيون علي ثورة الإيطاليين ضد الاحتلال.

توقف مرة أخري وجال ببصره فينا ثم قال ببطء: لكن الغريب والمؤسف في نفس الوقت أن المؤرخين الجدد اختلف الأمر لديهم عند الحديث عن الحملة المصرية.

انفصلت خصلة من شعره الأبيض وتدلت فوق عينه فرفع يده وأعادها مكانها.

قال: في عام 1988 صدر المجلد الفاخر عن "بونابرت: حرب مصر".(4) قال فيه مؤلفه:" سعد الرجل المصري بطرد المماليك لكنه انسان متقلب وإن كان طيب القلب..والجند الفرنسيون بسطاء طيبون يدفعون بسخاء ويمرحون.. الحياة محتملة لولا التدخل

الإنجليزي. ويتفجرالتمرد في شوارع القاهرة... وتلقي أيد خفية بالحجارة والرماح...وفي نهاية اليوم أعادت مدافع دومارتين وفرسان دوما الضالين إلي الصراط المستقيم.. وأثبت القمع القاسي.. وبضع رءوس مقطوعة.. أن السلطان بونابرت عادل ولا يمزح".

>>>

والأغرب من ذلك ما جاء في مقدمة هذا المجلد التي كتبها المؤرخ الشهير جان تولار البروفيسور بجامعة السوربون ورئيس معهد نابليون. فقد أكد أن نتائج الحملة هائلة..." أعمال المعهد الفرنسي ستخرج البلد من غفلته واكتشاف حجر رشيد سيؤسس علم المصريات. وسيستفيد محمد علي مما أنجزته الحملة ليقوم بتحديث البلد في عام 1815". أما ثورات المصريين فكان سببها التطرف الديني وليس الاحتلال.

تناقض آخر نجده في كتاب عن نابليون صدر عام 1987 في سلسلة "ماذا أعرف" الشهيرة للمؤرخ روجيه دوفريس(5)إذ يقول: كانت الحملة المصرية فاشلة تماما. لكنها كانت أصل الانطلاقة الاقتصادية المقبلة للبلد!!

>>>

إنه نوع جديد من المؤرخين الذي يعترف بالحقائق المؤلمة لكنه لا يزال متمسكا ببعض خيوط الأسطورة.

ويظهر التناقض في أجلي صوره لدي جان جويل بريجون في كتابه الصادر عام 1991 " مصر الفرنسية في حياتها اليومية."

>>>

فهو يسخر من المؤرخين العرب الذين انبهروا ببونابرت وحملته. وبينما يؤكد الهدف الاستعماري للحملة يتحدث عن الضمير الحي للغزاة ثم يشير إلي وحشيتهم في مدينة دمنهور مشبها إياها بوحشية النازي. وبعد 400 صفحة من كشف الحقائق الدامية وراء أسطورة الحملة إذا به يتحدث في الخاتمة عن الآثار الرائعة التي تركها الجيش الفرنسي: "فبغير إغارتهم علي مصر لما استطاعت أن تجد دروب التاريخ بهذه السرعة. وبغير هذه الحملة الفريدة في نوعها لفقدت فرنسا إسهاما ثقافيا رائعا... لذلك علينا أن نستمر في تكريم ذكري بونابرت وديزيه ومونج.... ..لقد وفرت الحملة للإنتلجنسيا الفرنسية ولتكنولوجيا القرن التاسع عشر حقل تجارب متميزا . إن كل الاستعمارالأوروبي، كل مؤسساته الكولونيالية قد تلقت دروسها الأولي في مصر "!!

كما نجد نفس التناقض لدي باتريس بريه 1995(6) في عدد خاص من مجلة "إيستوار" العلمية بعنوان "أسرار مصر الغامضة". فهو يتساءل في بداية مقال له: هل كانت هذه المغامرة حملة استعمارية عادية أم كانت غزوة ثقافية باهرة أرست قواعد تحديث البلد علي الرغم من فشلها؟ يجيب مستشهدا بعالم نبات فرنسي ذهب إلي مصر مع الحملة من أجل مهمة رائعة لدراسة النباتات، وكتب يقول:" نزلنا في بلد لم يكن يفكر فينا ننهب القري ونفقر الأهالي ونغتصب النساء".

<<<

بعد كل هذا ينهي بريه مقاله بقوله:" إن حملة بونابرت كانت المصادفة التاريخية التي سمحت بهذه النهضة المصرية". ومرة أخري يجد القارئ الموضوعي نفسه في بلبلة، فكيف يصل إلي هذه النتيجة وكلامه يؤكد عكس ذلك تماما؟

تطلع في ساعته وقال: لقد أوشكت علي الانتهاء. نأتي الآن لواحد من أهم المؤرخين المعاصرين وهو هنري لورنس. ففي عام 1989 قال في رسالته للدكتوراه، إن الحملة علي مصر " كانت شكلا من أشكال التخلي عن شعارات الثورة الفرنسية وعن حقوق الإنسان". لكنه عندما يصل إلي الخاتمة ليستخلص ما توصل إليه من نتائج فكرية نجده يؤكد المشروع الحضاري لبونابرت والحملة. وفي كتابه "المملكة المستحيلة" الصادر عام 1990 يتحدث بكل حزن عما كان يمكن أن يحدث لولا فشل الحملة المزري.

وفي ندوة علمية لاحقة أشار إلي رفض الفرنسيين تعليم المصريين شيئا من أمور الصناعة. ففي يوليو 1800دفع نقص أقمشة الثياب مسئولي الجيش إلي اقتراح إنشاء مصنع لها في مصر. وأعلن كونتيه – مخترع القلم الرصاص وأشهر علماء الحملة – أنه لا يقبل الاشتراك في هذا المشروع إلا بشرط السماح للفرنسيين وحدهم بدخول الورش وفي حالة الجلاء عن مصر لا بد من إخراج المعدات وتدميرها.

رغم هذا يقول لورنس: إن المعهدالفرنسي في مصر كان أداة الحضارة بامتياز، وإن الازدهار الثقافي هو الهدف الرئيسي للحملة.(7)

تطلع في ساعته مرة أخري والتفت إلي ربيع قائلا:أعتذر عن تجاوز الوقت المحدد لي.

<<<

وبدأت المناقشات.

طلبت الكلمة والتفتت الخمسينية العجفاء نحوي فيما خلته بادرة استنكار.

قلت: فيما يتعلق بتناقضات هنري لورنس أحب الإشارة إلي ما ذكره سنة 1989 من أن مصر كانت تعيش قبل الحملة مرحلة ثورية بسبب انخراط الجماعات الاجتماعية

المختلفة في التنافس علي السلطة....ونجاح رجال الدين في خلق تحالف مع الشعب ضد المماليك.

وفي مقال للمستشرق الفرنسي الكبير أندريه ريمون بعنوان "لا يوجد انحطاط عثماني"، شرح كيف كان لمصر قبل الحملة نظام سياسي وإداري يعتبر حديثا في عصره وكان لها كذلك نشاط اقتصادي احتفظ لها بمكانتها كمركز قوة في البحر المتوسط وكانت عاصمتها مزينة بروائع معمارية. لكنه يعود فيؤكد أن الاحتلال هو بداية التحديث رغم التطور الذي طال وعي المصريين قبل الاحتلال.

والحقيقة أن فكرة التطور السابق علي الحملة سبق أن تناولها المؤرخ الأمريكي بيتر جران في كتابه " الجذور الإسلامية للرأسمالية " الصادر عام 1979(8).

<<<

وقد رفض جران الزعم بأن مصر العثمانية كانت راكدة وأن الحداثة وصلت مع الاستعمار الأوروبي. وقال إن كثيرا من العمليات المتصلة بالتحديث قدوقعت في مصر قبل وصول الفرنسيين وكان في إمكانها أن تنجز عملية التحديث بنفسها لأنها شهدت تطورا اقتصاديا واجتماعيا مهما في القرن الثامن عشر وتعاصر ذلك مع مجموعة من العوامل الداخلية: تدهور نفوذ الباب العالي. ظهور البكوات المماليك في تجمع شبه مستقل من المقاتلين ذوي نزوع قوي نحو التجارة وبالتالي نحو الاستقلال عن السلطة العثمانية، بالإضافة إلي عوامل خارجية مثل تقدم الثورة الصناعية في غرب أوروبا وازدياد الطلب علي المواد الخام. كل هذا عزز الازدهار التجاري لمصر وصحبته صحوة اجتماعية مهمة وفكرية.

ويشير جران إلي فكرة شديدة الأهمية وهي أن الغزو الفرنسي قد أضر بالطبقات الوسطي والثقافة العقلانية التي أفرزتها.

والحقيقة أن مؤرخا أمريكيا آخر – هو كريستوفر هيرالد – سبق أن عارض أسطورة الحملة التي جلبت التحديث في كتابه الممتع " بونابرت في مصر" الصادر عام 1962.

استخرجت إحدي أوراقي واستطردت: يقول هيرالد:" لقد كان مآل مصر إلي التغيير سواء ظهر بونابرت في سمائها أو لم يظهر قط، وآيات الفن وروائعه في الأقصر والكرنك كان مصيرها إلي الكشف... وكانت الرموز الهيروغليفية حتما ستفك حتي وإن لم يكتشف حجر رشيد إلا بعد الحملة بسنوات، وكانت قناة السويس ستحفر حتي وإن لم يأمر بونابرت بمسح برزخ السويس".. ويؤكد المؤرخ الأمريكي أن مهمة اللجنة العلمية كانت تحويل مصرإلي مستعمرة.(9)

نتابع غدا

هوامش

(1)راجع د. ناصر إبراهيم في الطبعة المذكورة سابقا من مذكرات هوويه.

(2) يشيرإلي معركة بواتييه التي وقعت عام 723 م.عندما التقي جيش المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي بقوات الأفرنج بقيادة شارل مارتل. ووطد انتصار الأخير امبراطوريته لمدة قرن من الزمان.

Francois Furet

Jean Tranieet j.c. Carmigniani: BonaparteLa Campagne d.Egypte, Gerard Watelet,1988

Roger Dufraisse; Napoleon ,Que saisje, Presse Universitaire de France. 1987

Bonaparte en Egypte, Patrice Bret, L.histoire 190.1995

(7) راجع الدراسة الشاملة عن هذا الموضوع في كتاب " الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير –ج1و2–للدكتورة ليلي عنان أستاذ الحضارة الفرنسية بجامعة القاهرة، كتاب الهلال 1998، وتعتبر أول كشف لتناقضات المؤرخين الفرنسيين الجدد.

The Islamic Roots 0f Capitalism,Egypt 1760-1840, Syracuse University press,1979

(9) صدر الكتاب باللغة العربية بالقاهرة سنة 1966في ترجمة بديعة لفؤاد أندراوس.

بمجرد أن انتهيت رفع لادو يده ثم وقف وقال: أحب أن أشكر البروفيسور شكري علي ملاحظته. لكن الحقيقة أنه لابد من أن نأخذ بحذر أحكام المؤرخين الأمريكان. فهم مثل الانجليز يملكون رؤية معادية لفرنسا علي طول الخط جلس وهو يتطلع إلي بنظرة حرت في تفسيرها. ولم أجد فائدة من التعقيب.

طلب شاب في قميص وبنطلون جينز الكلمة وقال: إن التناقضات التي أشار إليها البروفيسور لا تحط من قيمة الدراسات التي ذكرها. بل بالعكس تؤكد أهميتها وحرص مؤلفيها علي الإحاطة بزوايا النظر المختلفة.

لم يعلق أحد ولم يطلب أحد الكلمة فقام ربيع بتلخيص أطروحة البروفيسور اللبناني والمناقشات التي دارت حولها ثم أعلن رفع الجلسة.

غادرت مقعدي فاقتربت مني الخمسينية العجفاء وعلي وجهها نظرة تصميم. وقدمت لي نفسها علي أنها تدعي كريستين وأنها باحثة سبق أن رأتني في مركز الآثار الفرنسي بالقاهرة.

لم أتذكرها ولكني تظاهرت بذلك وأطريت ذكاءها فلانت ملامحها وابتسمت في لطف. ولازمتني إلي الخارج.

ذهبنا سيرا علي الأقدام إلي مطعم قريب وهي تحاول الحديث بالعربية بينما كنت أتطلع حولي متلهفا علي رؤية إيزابيل. كان عبد الكريم ولادو يسيران أمامنا منهمكين في نقاش. وسمعت عبد الكريم يقول: أنا كمواطن فرنسي وكررها مرتين. وفهمت أنهما يتحدثان عن العلاقة بين مصر والغرب ويحاولان تحديد المسئولية عما أصاب مصر من تدهور.

عندما دخلنا المطعم رأيتها. فاتجهت إلي المقعد المقابل لها، وفجأة ظهر ربيع إلي جواري وقال إن الأنسب أن أجلس في الوسط بينه وبين رفيقتي العجفاء. واستقر هو في المقعد المقابل لإيزابيل.

أبديت اهتماما بثرثرة رفيقتي دون أن أرفع نظري عن إيزابيل. وانتهزت فرصة انشغال كريستين بطبقها فأطريت إيزابيل قائلا إنني استمتعت بالندوة لأنها كانت هناك.

احمّر وجهها وقالت: أعتقد أن الحضور استفاد من النقاش. أنا نفسي ازددت وعيا بأمور لم أكن أدركها!

قلت ضاحكا: فيما يتعلق بالنساء أفضل تخديرهن علي توعيتهن.

انحنت نحوي قائلة في حكمة: عندما تصبح المرأة أكثر وعيا يمكن تخديرها بسهولة.

شعرت بأني أخطأت التعليق فانهمكت في الأكل. وقمت بعد قليل إلي الحمام لأغتسل وعندما عدت وجدتها قد اختفت.

بحثت بعيني عن ربيع فوجدته قد اختفي هو الآخر.

استمعت في ملل إلي حديث رفيقتي. وفي النهاية اعتذرت بأني متعب. وغادرت المطعم بصحبة رفيق سليمان وعدنا سيرا علي الأقدام إلي الفندق.

سألني: هل ستذهب إلي باريس بعد المؤتمر؟

قلت: أجل. سأبقي هناك يومين قبل العودة إلي القاهرة.

قال: إذن يمكنك أن تشترك معنا.

–في أي شئ؟

– هل سمعت عن قانون رد الاعتبار للاستعمار؟

– أعتقد أنه ما زال قيد النظر بالجمعية الوطنية.

قال: فعلا. سينعقد بعد يومين في باريس مؤتمر لمعارضة القانون تنظمه جمعية للمؤرخين. ما رأيك في أن تشترك فيه؟

قلت:لا بأس.

سأل:أين ستنزل في باريس؟

قلت: سأختار فندقا رخيصا.

قال: سنحجز لك نحن في فندق قريب من مكان المؤتمر.

سألته: كم يوما يستمر؟

قال: ثلاثة أيام.

قلت: لن أستطيع الاشتراك فطائرتي محجوزة بعد ثلاثة أيام من الآن.

قال: لا يهم. سنتولي تغيير بطاقة الطائرة.

(10)

عندما هبطت إلي البهو في الصباح صافحت أذني موسيقي جميلة تنبعث من سماعات في الحائط تعرفت علي "عالية موزيكا" التي تجمع بين الترنيمات العربية الإسلامية والكنسية. وكان رفيق يتحدث مع شاب أربعيني قدمه لي علي أنه شاعر مغربي يعيش في فرنسا من مدة.

كان الشاب مهذبا للغاية واكتشفت أنه لا يعرف شيئا بالمرة عن أحداث العالم العربي. وانضمت إليه سيدة فرنسية قال إنه يشترك معها في ترجمة بعض الأعمال الشعرية العربية. كانت ذات وجه حسي وتكبره في السن بوضوح وتبدو مكتئبة. أراني إهداء كتبته له علي كتاب من ترجمتها: "إلي مومي..إن شاء الله؟!!" وعرفت أنه متزوج ولديه طفلان. ويعيش في مدينة نانت.

كان الشاب يحاول الاتصال تليفونيا بمنزله وهو قلق علي أسرته من جراء الأحداث التي امتدت إلي مدينته. وقال رفيق إن الشباب الثائر أحرق بالليل 1408مركبات سيارة في أنحاء فرنسا. ثم أراني مقالا بإحدي الصحف عن كتاب بعنوان "الوجه الآخر لإسرائيل"، كتبه بالإنجليزية كاتب إسرائيلي مقيم بفرنسا يدعي آدم شامير.

فهمت من المقال أن الطبعة الفرنسية للكتاب صدرت عن دار "القلم" الفرنسية في العام الماضي 2004. ويري المؤلف أن العالم علي أعتاب حرب عالمية ثالثة تقودها الولايات المتحدة ضد العالم الثالث بدأت علي أرض فلسطين والعراق. وتعرض بالتحليل للتأثيرالمتزايد للوبي الصهيوني علي السياسة الأمريكية فأفراده هم الذين ساندوا الحرب ضد العراق ويشجعون الأزمات في كل مكان من أجل إقامة إمبراطورية يهودية أمريكية.

ويعتقد المؤلف أن الحل الوحيد للصراع العربي الإسرائيلي لن يتأتي إلا باقامة دولة ديمقراطية علمانية – غير دينية – تضمن الحقوق والمساواة لجميع الإثنيات.

وذكرت الصحيفة أن "الرابطة الدولية ضد العنصرية ومعاداة السامية" أقامت دعوي أمام القضاء الفرنسي في سبتمبر الماضي ضد مؤلف الكتاب وناشره. وحكم في الدعوي الابتدائية في 2 نوفمبر 2005 بالسجن ثلاثة أشهر لمسئول دار النشر مع وقف التنفيذ وغرامة عشرة آلاف يورو بتهمة التحريض علي إثارة العداء العرقي والتمييز العنصري والتعصب، و12 ألف يورو كتعويض عن الضرر المبكر. وقضت المحكمة أيضا بسحب الكتاب من الأسواق. وقد أقام الناشر والمؤلف دعوي مضادة.

تركنا الشاب يحاول الاتصال بمنزله وتناولنا القهوة والكرواسون في مقهي الكتب الحجرية ثم اتجهنا إلي قاعة المؤتمر لحضور أعمال اليوم الثالث والأخير.

تتابع وفود الحضور في بطء. وكان الإرهاق يبدو علي أغلبهم.وجاءت البروفيسورة اللبنانية متأخرة واختارت الجلوس بجواري وهي تقول:لم أنم جيدا إذ تأخرت في تصوير حديث أجراه معي التليفزيون.

لاحظت رجلا أربعينيا ممتلئ الجسم ينطق بوفرة ثقته بالنفس. كان شعره بني اللون ناحلا في مقدمة رأسه ويرتدي بزة زرقاء أنيقة غالية الثمن وتلمع في معصمه ساعة ذهبية ضخمة. كان يجلس في الصف الأول مستندا بيده إلي حقيبة سامسونايت فوق ركبتيه. وشعرت أنه من مواطني.

تولي البرديسي رئاسة الجلسة واعتلي رفيق سليمان المنصة ليدلي بمساهمة عنوانها "لذة المستعمر". وأخرج مواطني صاحب السامسونايت قلما وورقة واستعد للعمل.

بدأ رفيق حديثه بنبرة تهكمية: لم يخطر ببال أحد من البيروقراطيين المصريين عندما قرروا المشاركة في الاحتفال بمرور 200 سنة علي حملة نابليون بونابرت علي مصرسنة 1798 أنهم بذلك قد نخسوا عش الزنابير.

كان يشير إلي الاحتفال الذي جري منذ سبع سنوات في كل من القاهرة وباريس.

استطرد: وفيما يبدو أن أحدا منهم لم يفكر في الأمر بجدية وأنهم كانوا واقعين تحت تأثير ما لقنته لهم المدارس من أن النهضة المصرية الحديثة بدأت بالصدمة الحضارية التي أحدثتها الحملة الفرنسية وأن هذه الحملة أخرجت مصر من العصور المظلمة وكانت بداية تاريخها الحديث.

وعندما استنكر بعض المثقفين المصريين علي استحياء أن يفرض عليهم الاحتفال بغزاتهم، وأسرعوا إلي كتب التاريخ يستخرجون منها وقائع الحملة من مثال عدد القتلي من المصريين الذين بلغوا 300 ألف قتيل، سارع أنصار الاحتفال (وجلهم من المرتبطين بمراسيمه شخصيا أي المشتركين في نشاطاته كمنظمين رسميين أو مدعوين – إلي فرنسا بالطبع !) إلي القول بأن للحملة جانبين وأن المدفع ذهب وبقيت المطبعة، مشيرين إلي أنها كانت أول مطبعة باللغة العربية في تاريخ البلاد.

كان رفيق يقرأ من أوراق صغيرة في يده. وأنصت الحاضرون في انتباه بينما كان صاحب السامسونايت يسجل كلمات رفيق بسرعة.

قال: وعاد المعارضون إلي كتب التاريخ فتبينوا أن المطبعة هي التي ذهبت والمدفع هو الذي بقي ذلك أن نابليون عندما غادر مصر أخذ معه المطبعة التي أحضرها واقتصر دورها علي أي حال علي طبع المنشورات التي حاول فيها بسذاجة تامة إقناع المصريين بإسلامه وحسن نواياه وبأنه لم يقم بغزو مصر إلا ليحمل إليها الحرية والنور .

أما المدفع فقد دوت طلقاته عدة مرات بعد خروج نابليون، إذ لم تنته الأطماع الاستعمارية لفرنسا حتي عهد قريب: فبعد مئة سنة بالضبط من المحاولة الأولي كان الكابتن جان بابتست مارشان علي رأس عدد من الضباط الفرنسيين والجنود السنغاليين يقوم بحملة جديدة من الجنوب، قادما من الكونغو برازافيل ليلتحم في مدينة فاشودة علي النيل بحملة أخري قادمة من البحر الأحمر وصلت قبله بعدة أسابيع.

وبعد قرابة نصف قرن شاركت الدولة الفرنسية سنة 1956 في تنظيم العدوان الثلاثي مع بريطانيا وإسرائيل علي مصر .

أدرك البيروقراطيون أنهم تسرعوا وبدلا من أن يتراجعوا التجأوا إلي الوسائل المجربة والتي برعت فيها البيروقراطية المصرية وجربتها في كثير من المواقف وخصوصا وهي بصدد تنفيذ تعليمات صندوق النقد الدولي. وتبدأ أولا بالانكار: أبدا لم يحدث. من قال إننا نحتفل بالحملة؟ ويتلو ذلك اللعب بالكلمات: إننا نحتفل فقط بمرور مائتي عام علي بدء العلاقات الثقافية.

في هذه المرة كان بيير سوليه، مدير تحرير "اللوموند" ومؤلف رواية "الطربوش" الشهيرة هو الذي دحض الفرية. ففي أحدث كتبه الصادر بعنوان "مصر شغف فرنسي " قال إن تاريخ العلاقات الثقافية بين مصر وفرنسا لم يبدأ مع الحملة الفرنسية وإنما قبلها بقرنين آخرين من الزمان.

لاحظت أن مواطني صاحب السامسونايت كف عن تدوين ما يقوله رفيق. وفكرت أنه لا يحتاج إلي هذا الجهد لتسجيل المداخلة. فيمكن أن تحتوي الحقيبة السامسونايت علي ما يكفي من أجهزة للقيام بهذا العمل.

إذن ما ضرورة التظاهر بالتسجيل بالورقة والقلم؟ هل هي رسالة موجهة إلي رفيق؟

مضي هذا يقول: لكن لعبة الكلمات استمرت: "إننا نحتفي ولا نحتفل !! .. الحملة جزء من تاريخ مضي وانتهي أمره، المهم هو النتائج الموضوعية: ويكفي وصف مصر علي يد العلماء الذين أحضرهم بونابرت معه". وهم نفس العلماء الذين ابتكروا قاذفات اللهب ليصبها كليبر علي القاهريين. فلم تتعد وظيفة هؤلاء العلماء التخديم علي محاولة استعمار مصر. فزعيمهم مونج – الذي ارتقي هو وزميله برتوليه بفن النهب إلي مستوي العلوم الدقيقة أثناء تجربتي إيطاليا و مالطا – كتب إلي زوجته يقول إنه لو

استوطن مصر عشرون ألف أسرة فرنسية "ليشتغل أفرادها بالمشروعات التجارية والصناعية ..إلخ، لغدا هذا البلد أجمل مستعمراتنا وألمعها وأفضلها موقعا".

من وصف مصر إلي حجر رشيد فضلا عن الحرية والليبرالية والتنوير. كأنما بونابرت كان يملك وقتا أو صبرا لنشر الأفكار الليبرالية التنويرية وهو يقطع كل ليلة 30 رأسا تثبت في الصباح فوق الحراب ليمر بها جنود التنوير – القادمون من نهب إيطاليا موعودين بستة أفدنة لكل منهم – في الشوارع والأزقة، ثم يعود إلي فرنسا بعد أن فقد نصف جنوده البالغ عددهم50 ألفا (1) (وهو أمر برع فيه دائما) ليصفي الثورة الفرنسية ذاتها ويصل بفرنسا إلي الخراب.

وعندما مل البيروقراطيون المصريون من هذا الجدل العقيم لجأوا إلي الواقعية: "يجب أن نحيي ونشيد بإسهام المستعمر الثقافي وننسي ما حدث منه عسكريا لصالح الثقافة والرقي. ذهبت ونسيت مساوئ القهر العسكري إلي غير رجعة وبقيت المعارف والثقافة والصداقة التي يجب أن تنمي حتي نتمكن من إنتاج المعرفة بدلا من استهلاكها .الأهم من كل شيء هو المستقبل".

هكذا توصل البيروقراطيون إلي صياغة جديدة: " مصر فرنسا: آفاق مشتركة "، لكن المناسبة هي نفسها: مرور 200 سنة علي حملة بونابرت.

ما غاب عن المشهد هو الجانب الفرنسي . فلم ينتبه أحد من الفرنسيين إلي أنه يتم تلقينهم درسا في محاسن الاستعمار وفي الصورة المثلي للعلاقة بين الشعوب. وأنه يتم تعويضهم عما يتعرضون له من استغلال متزايد علي يد الرأسمال الكبير المتوحش، بإحياء مشاعرهم القومية، واللعب علي فخرهم التقليدي بالمجد وغرامهم

بأسطورة نابليون وشغفهم بمصر وهو ماكان يفعله نابليون بالضبط بينما يدفن مبادئ الثورة عمليا.

انتقل رفيق بعد ذلك إلي أكذوبة الصدمة الحضارية. واستشهد بمجادلات الأمس بشأن أطروحات أندريه ريمون وبيتر جران ثم قال:

يمكننا أن نقول إن الحملة الفرنسية قد أجهضت مشروع تحديث مصر، لا أنها هي التي كانت السبب في وجوده. ولنتأمل حقيقة صغيرة هي عدد القتلي من المصريين والذي بشهادة علماء الحملة أنفسهم تجاوز ربع مليون في بلد لم يزد تعداد سكانه وقتها علي مليونين ونصف المليون. لن يصعب علينا أن نتصور الفئة العمرية لهؤلاء القتلي وأغلبهم سقط في مواجهات دامية مع المحتلين، ومن الطبيعي أنهم لا يمكن أن يكونوا أطفالا أو شيوخا ولابد أنهم كانوا من الشباب والرجال الناضجين أي الفئة الحركية في المجتمع، المهتمة بالشأن العام والقادرة جسديا وثقافيا علي البناء والعطاء.

أنخطئ إذن إذا اعتبرنا الاحتفال بذكري الحملة الفرنسية علي مصر، الذي جري تحت شعارات الصداقة والود والآفاق المشتركة، هو صنو للحملة ذاتها التي تمت تحت شعارات الثورة والحرية والتنوير واستهدفت العدوان علي حقوق وآدمية كلا الشعبين المصري والفرنسي؟

وهل نخطيء أيضا إذا اعتبرنا موقف الفرانكفونيين المصريين والسلطة المصرية عموما شاهدا علي ما يشعر به المضطهد والمستعمر – بفتح الميم– من لذة؟

توقف رفيق وجمع أوراقه الصغيرة معلنا انتهاء مداخلته. وطلب مواطني صاحب السامسونايت الحديث. وتهامس الجالسون خلفي عن شخصيته، وفهمت أنه يعمل في السفارة المصرية بباريس. ولم أفاجأ بتعليقه.

قال: مهما نقل إلينا عما فعله الجيش الفرنسي في مصر أثناء احتلاله لها فلن يقلل ذلك من حقيقة مهمة هي أنه دق ناقوس الصحوة للمصريين والشرق الأوسط كله من نوم طال قرونا عشرة. فلولاهم لظلت مصر والأمة العربية سادرة في سبات طويل و متأخرة عن ركب العلوم والفنون إلي الآن.

وكأنما أراد أن يستدرك فمضي يقول: لا يزعم أحد أن نابليون جاء إلي مصر حاملا مشعل الثقافة والحضارة للشعب المصري، لكننا يجب أن نفرق بين الاستعمارالعسكري الذي يجب أن نرفضه وبين حضارة ورقي المستعمر حيث يجب أن نعترف بهما ونأخذ بهما. سار الاستعمار العسكري والثقافي جنبا إلي جنب ويجب أن نشيد بإسهام المستعمر الثقافي وننسي ما حدث منه عسكريا لصالح الثقافة والرقي.

أعطي البرديسي لرفيق فرصة الرد فقال باسما: إن ماذكره الدبلوماسي المصري يؤكد فرضيتي عن اللذة التي يشعر بها المستعمَر.

أدركت أنهما يعرفان بعضهما البعض. وتساءلت عما إذا كان الدبلوماسي المصري قد جاء خصيصا للاستماع إلي رفيق وتسجيل كلماته.

انفعل ودون أن يعبأ بطلب الحديث وقال: لعب الفرنسيون الدور الأهم في تحديث مصر أيام محمد علي بمشروع القناطرالخيرية. وكان لهم دور فعال في الكشوف الأثرية.وأسس كلوت بيك مستشفي قصر العيني وأخيرا هاهم قد ساعدوا في تشييد مترو الأنفاق.

ضحك رفيق وقال: من الصعب أن نتصور أن مترو الأنفاق الذي تم في التسعينيات المنصرمة هو من النتائج الإيجابية لحملة بونابرت علي مصر.فهو عملية تجارية بحتة كان من الممكن أن تتم مع أي دولة وليست مكرمة صداقة. وبالمثل فإن الفرنسيين الذين استعان بهم محمد علي لا يمكن اعتبارهم ممثلين لبلدهم. فأغلبهم كان من رجال بونابرت الذين تحولوا إلي مرتزقة يخدمون حيثما يوجد صاحب عمل.

قال أستاذ جزائري وهو يبسط ورقة أمامه ليقرأ منها: أنا أوافق الأستاذ المصري الذي تحدث عن لذة المستعمَر. وأحب أن أقدم نموذجا لهذه اللذة من الجزائر. فكتاب التاريخ المدرسي للسنة الخامسة عندنا يقول في صفحة 17 ما نصه:"في بداية القرن التاسع عشر أثناء الثورة الصناعية طورت فرنسا جيشها وبنت قدراتها العسكرية بما سمح لها بتحرير الجزائر". تصوروا هذا الكلام بعد حوالي أربعين سنة من الاستقلال؟

تدخل البروفيسور لادو قائلا: أذكرأني قرأت مقالا لأحد المفكرين المصريين وصف فيه الحملة بأنها كانت النور في ظلام شامل. وغالبية المثقفين المصريين يقرون بأن الحملة الفرنسية لم تكن غزوة استعمارية فحسب بل كانت لها جوانبها الثقافية والحضارية التي بدأت منها النهضة المصرية الحديثة في أوائل القرن الماضي. إن الديوان الذي أنشأه بونابرت كان أول برلمان تعرفه مصر كما أن الفضل يرجع إليه في تحطيم قوة المماليك التي كانت عقبة في تطور المجتمع المصري

نتابع غدا

هوامش

(1)من جملة رجال الحملة الذين يزيدون علي 50 ألفاً لم يعد إلي فرنسا سوي 23 ألفا أو أكثر قليلا بينهم 3000 مريض.

طلبت الكلمة وقلت: يتضح من يوميات الجبرتي (والتفت ناحية لادو قائلا: وتلميذه) أن الديوان لم تكن له غير وظيفة واحدة هي إخماد الثورة وجمع الأموال. أما المماليك فإن قوتهم كانت علي شفا النهاية بدليل الانتفاضات التي انتشرت ضدهم قبل الحملة، كما أن تحطيمهم تماما لم يتم إلا بعد عشر سنوات من الحملة علي يد محمد علي.وواقع الأمر أن الحملة أجهضت مشروعا تحديثيا في طور التكوين.

تدخل البرديسي في النقاش قائلا:ألاحظ أن الحاملين علي الحملة يتجاهلون الدور الذي لعبته اللجنة العلمية.

رد عليه رفيق علي الفور: اللجنة العلمية هي التي ابتكرت قاذفات اللهب التي استخدمها كليبر في إخماد ثورة القاهرة الثانية. لقد كان هدف بونابرت هو تحويل مصر إلي مستعمرة مفيدة لفرنسا، واقتصر دور اللجنة العلمية علي ذلك فلم يساهم رجالها في تعليم المصريين وفتح عالم المعرفة الحديثة أمامهم ونقلهم من غياهب الجهل إلي نورالعلم الحديث.

قاطعه البرديسي قائلا: أنت تتجاهل حقائق تاريخية مثل كتاب وصف مصر.

قال رفيق: كتاب وصف مصر يعتبر بحق من درر الحملة. لكنه وجهة نظر فرنسية موجهة للفرنسيين. أهم ما أنجزه علماء الحملة هو الخرائط فقد كانت ثورة في نظام المعرفة بالنسبة لعصرها، وكانت مهمة بالنسبة لمشروع السيطرة علي الأرض المصرية من أجل تحركات الجند وجمع الضرائب. وبين كم الصور الذي تحويه مجلدات

الكتاب لا نجد صورة واحدة للمعارك العسكرية، فتبدو الحملة تنويرًا وحضارة، وهي الصورة التي ما زالت فرنسا تهتم باستمرارها حتي الآن.

تطلع البرديسي في ساعته ثم قال:نكتفي بهذا القدر من النقاش والكلمة الآن للبروفيسور جابريلا عبد القادر أستاذ تاريخ الفن بجامعة السوربون.

صعدت إلي المنصة سيدة في الأربعينيات ذات شعر منكوش وعوينات طبية، وكانت لها بشرة سمراء اللون.

جزائرية أو مغربية من الجيل الثاني من المهاجرين لمحت فتاة تقترب من مقعد الشاب ذي القرطين. بدا سعيدا بمقدمها وأجلسها إلي جواره و هو يمسك يديها ويتطلع إليها في وله طفولي. وبدت الفتاة شاردة كأنها مستغرقة في التفكيرأو تتأمل شيئا داخلها.

قام الشاب من مقعده فعلق شاشة بيضاء خلف المنصة ثم اتخذ مجلسه أمام جهاز للصور الضوئية.

انطلقت أستاذة السوربون في الحديث دون مقدمات: لجأ بونابرت إلي التصوير والدعاية ليؤكد للفرنسيين عبقريته الفذة. فكان يأمر المصورين بعد كل معركة في إيطاليا برسم لوحة تفخم دوره في انتصارات مذهلة لم يكن له شخصيا فيها نصيب. وهذا ما قامت به أيضا صحف طبعها علي حسابه الخاص. وفعل نفس الشيء بالنسبة لحملته علي مصر فحول الحملة – الفاشلة باعترافه –إلي مجد شخصي له.

قالت المتحدثة إنها ستعرض علينا خمس لوحات تبين الأكاذيب التي بنيت عليها أسطورة الحملة.

أشارت للشاب ذي القرطين فحرك الشرائح الضوئية وظهرت علي الشاشة لوحة لبونابرت وهو يهدي الوشاح ذا الألوان الثلاثة (رمز الجمهورية الفرنسية بمبادئها الثلاثة: الحرية والإخاء، المساواة) لأحد بكوات مصر.

علقت البروفيسورة: هذه اللوحة لفنان مجهول. ولا شك في أن قبول البيك هذا الوشاح من يدي بونابرت يدل علي الوفاق التام بين الجنرال المنتصر وشعب مصر المهزوم كما يدل من ناحية أخري علي أن الجنرال معني بنشر مبادئ الثورة الفرنسية.

وأشارت إلي جانب اللوحة كما ظهرت علي الشاشة وقالت: نري نصف نخلة علي يمين الرسم في صحراء جرداء وهو ما يكفي للتأثير علي الفلاحين الفرنسيين الذين لم يروا مثلها من قبل. ويرتدي بونابرت القبعة ذات الريشات الثلاث وجلبابا طويلا ويقف علي اليمين بوجه صارم لكن حركته ودية أبوية. أما البيك فيرتدي لباسا عجيبا عبارة عن جلباب طويل وعمة عليها هلال ممثلا دور المسلم ساكن مصر.ويعبر انحناء رأسه عن خضوع المهزوم وذلته وهو لا يكاد يصدق كرم المنتصر وإنسانيته.

لكن التاريخ يكشف زيف الرسالة. فحسب الجبرتي رفض المشايخ، وعلي رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوي بعنف ارتداء هذا الوشاح. كما أن بكوات المماليك لم يخضعوا أبدا، وظلوا يقاومون حتي خروج الفرنسيين.

أشارت للشاب فأرانا صورة أخري. قالت هذه اللوحة عنوانها: "الجنرال بونابرت يعطي سيفا إلي حاكم الإسكندرية العسكري". والإيحاء هنا بمحمد كُريم الذي عينه بونابرت فعلا حاكما علي الإسكندرية بعد فشل المقاومة التي قادها وذلك قبل أن يعدمه بشهرين عندما تكشف له ضلوعه مع الثوار.

مضت تقول: أول ما يلفت نظر المشاهد الخشوع المطلق للشعب المهزوم. إنهم علي يسار اللوحة يقفون بملابسهم البنية خلف الحاكم المصري السعيد ونري أحدهم يضم يديه بسعادة بالغة. إنه أحد ثلاثة رجال لن نفهم وضعهم بل ثراء لباس أحدهم إلا إذا تذكرنا اللوحات الدينية الغربية التي تصور ملوك المجوس الثلاثة وهم يقفون أمام مهد السيد المسيح بعد أن جاءوا إليه من أقصي الشرق ليعبدوه.

وفي الجزء الأيمن من اللوحة نري الفرنسيين منتصبين في كبرياء وخيلاء بكامل أسلحتهم المزركشة بجانب العلماء.

أسندت المؤشر إلي وسط الصورة واستطردت: نصل الآن إلي محور الصورة: في الوسط حاكم الإسكندرية المسلم يحني رأسه ويتكئ علي إحدي ركبتيه وكأنه أحد شباب القرون الوسطي عندما كان سيده ينصبه فارسا بسيف الفروسية الجديد في حفل مهيب. وعلي يسار بونابرت فارس بكامل زيه الرائع من الفراء الذي يتنافي مع حرارة جو مصر ولم يكن من ملابس الحملة. وواضح أن الفنان لم يزر مصر يوما.

أبرز الشاب اللوحة الثالثة فقالت: اللوحة الشهيرة التي رسمت لنابليون بعد موقعة إمبابة التي أطلق عليها اسم موقعة الأهرامات لإعطائها جاذبية أسطورية. فمن كان يعرف إمبابة التي كانت بعيدة عن الأهرامات؟ ويظهر بونابرت وكأنه الفاتح المنتصر علي ظلمات التخلف، مرفوع الرأس وسط حشد من القتلي والجبناء المتوسلين إليه طلبا للعفو والسماح.

أما اللوحة الرابعة فتتناول ثورة القاهرة الأولي. الناظر إليها سيجد نفسه مجبرا علي المقارنة بين المقاتل الفرنسي علي اليسار وعدوه علي اليمين وكلاهما شاهر سيفه ليقضي علي الآخر. الفرنسي صورة للفارس الأوروبي النبيل ممثل الحضارة الوحيدة في

العالم، ملابسه جميلة وكاملة وألوانها محببة للنفس بينما غريمه علي اليمين له جسم ضخم عار كأنه متوحش يعيش في الغابات ووجهه الأسود يؤكد بربريته كما كان نمط المتوحشين في أدبيات ذلك العصر. إنه عبد يدافع عن سيده المملوك الشاب الأبيض ذي الملابس الوردية الفاخرة. وبينما سقط هذا مغشيا عليه في وهن فإن الفرنسي يهاجم بهدوء وجسارة. توقفت لتلتقط أنفاسها ثم استطردت: المعروف فوق ذلك أن ثورة القاهرة الأولي لم يشارك فيها المماليك علي الإطلاق. هكذا تصور اللوحة انتصار قوي النور والتنوير علي قوي الظلام والتخلف والتعصب الديني الأعمي. وسنري كل هذه المعاني مجسدة في اللوحة التالية المسماة "بونابرت في الجامع الكبير بالقاهرة" وهي لوحة رائعة بحق.

انتظرت حتي ظهرت اللوحة أمامنا وقالت: نفهم طبعا أن المعني بالجامع الكبير هو جامع الأزهر وهي كذبة تاريخية لأن بونابرت لم يدخل هذا الجامع علي الإطلاق. ثم إن رموز اللوحة مسيحية أو غربية ليست لها علاقة بالشرق ولا بمصر ولا بالإسلام. نري بونابرت وحده في أعلي اللوحة علي اليمين ومن ورائه مدينة بيضاء وسماء زرقاء صافية وكأنه ينزل منها علي جواده الأبيض في هدوء ووقار، مادّا يده إلي الأمام، مستحوذا علي كل النور الذي يغمر هذا الجزء. بينما جمهور المهزومين غارق من تحته في الظلام ينظرون إليه من أسفل، إلي النور الذي لا يشع إلا من أعلي الصورة كأنه يشع من شخص بونابرت وجواده الأبيض. المشاهد الغربي المشبع بالثقافة المسيحية واللوحات التي تصور قصصها وأساطيرها سيفكر حتما في ميخائيل رئيس الملائكة الذي قاد جيوش الحرب ضد الشيطان عندما ثار الأخير علي الناموس الإلهي. نراه دائما رافعا يده أو مادّا سيفه وجناحيه من خلفه ينظر إلي أسفل حيث يقبع الشيطان مطحونا رمزا لقوي الظلام والضلال. ونري بونابرت في اللوحة نازلا من السماء علي جواده الأبيض كأنه

ملاك الحق والنور (والتنوير إذن) ينظر بهدوء أسفل قدميه إلي قوي الظلام والجهل. أما باقي اللوحة فلا يقل رمزية وكذبًا، فهندسة الجامع لا علاقة لها بالجامع الأزهر والمحارب الثائر الواقف أمامنا يرتدي ملابس القرون الوسطي وكأنه ذاهب لملاقاة الملك لويس التاسع في حملته علي مصر.

أبدل الشاب اللوحة بأخري فمضت تقول: هذه اللوحة الشهيرة لبونابرت بين مصابي الطاعون في يافا رسمها الفنان جرو بأمر من نابليون ردا علي ما شاع من أنه قام بتسميم جنوده المصابين بالطاعون. اللوحة جميلة جدًا فنيا لكن ايحاءاتها لن يفهمها إلا المسيحي القارئ للأناجيل، خاصة قصة الأبرص الذي جاء إلي السيد المسيح فلما لمسه شفي. جزء من أسطورة الرجل الخارق التي برع نابليون في رسمها.

قال نابليون يوما بمناسبة هذه اللوحة: "ما من عاقل سيقوم بمثل هذه الفعلة المتهورة ويقامر بحياته ويعرض كل جيشه للهلاك إذا أصيب هو بالطاعون". لكنه هو الذي أمر الفنان جرو برسم لوحة تؤكد أنه كان يرعي جنوده حتي لمسهم وهم مصابون بالطاعون فتتأكد استحالة أمر تسميمهم بعد ذلك.

انتهي عرض البروفيسورة. ورفع أحد الحاضرين يده وقام واقفا. كان متقدما في السن ورث الثياب. قال إنه يعتقد أن الفنان ليس مطالبا بأن يكون قد شارك في الحملة.

أجابت السيدة قائلة: النقطة الأساسية أن ما تصوره اللوحات يدخل في باب الأكاذيب سواء كان الفنان مشاركًا في الحملة أو غير مشارك.

وانتهي النقاش عند هذا الحد(1).

توافد أغلب المشاركين والحضور لجلسة بعد الظهر التي سيختتم بها المؤتمر. وتبادل أغلبهم الجديد في أحداث الشغب.

صعد البرديسي إلي مقعد الرئاسة وانضم إليه ربيع.

قال الأول إنه سيقرأ بيانا سيعرض علي كل الأساتذة العرب للتوقيع عليه. وقرأ كلمة بالعربية تستنكر الممارسات الدموية للحركات الأصولية التي تشوه الوجه الحقيقي للإسلام، وتطالب بتحكيم العقل وإرساء الديمقراطية والحوار الحقيقي عوضا عن العنف وإلغاء الآخر.

وبعد أن انتهي من قراءة البيان أعطي الكلمة لربيع فقرأ نسخة منه باللغة الفرنسية.

كان يبدو عليهما التعجل كأنما يستبقان أي معارضة.

طلب رفيق الكلمة فرفض البرديسي منحها له فوقفت منفعلا وقلت: هذا البيان مضلل لأنه لا يذكر غير جانب واحد من القضية ويغفل العوامل الأساسية التي أفرزت – وما زالت – التطرف والعنف وهي التراث الاستعماري والهيمنة الغربية ومخططات استنزاف الشعوب العربية واستمرار الاحتلال الإسرائيلي وفساد الأنظمة وغياب الديموقراطية.

تحدث البروفيسور اللبناني فقال إنه وقع علي البيان لكنه ما زال يراه مقصراً وكان لابد من أن يتضمن إشارة لخلفيات التطرف والعنف.

بدا البرديسي وربيع معه عازمين علي إقرار البيان فتجاهل الأول طلبا بالكلام من أستاذة الفنون الجزائرية وأعلن ختام المؤتمر.

غادرنا المبني في صمت وتجمعنا في مقهي صغير بجوار مبني البلدية في انتظار العشاء. وكان رفيق قد انصرف مسرعا ليلحق بقطار باريس.

لحقت بنا البروفيسورة اللبنانية، ووقفت بجوارنا تدير بصرها بحثا عن مقعد. نهضت مقدما مقعدي لها. وأحضرت مقعدا آخر من مائدة في طرف المكان. وجلست إلي جوار ربيع.

همس لي: أنتم المصريين تحترمون المرأة كثيرا.

قالت البروفيسورة بصوت مرتفع إنها متعبة لم تنم جيدا وسهرت بالليل..

قاطعتها: في تصوير تليفزيوني. قلت لنا هذا الصباح.

تأملتني برهة كأنها تراني لأول مرة وقالت: لقد أردت أن أستريح قليلا قبل العشاء لكن الصحفيين لم يتركوني في سلام.

قال رفيق إن الصحف المسائية تتحدث عن سقوط هليوكبيتر أمريكية جديدة في العراق. وأضاف: هناك خبر مضحك في الصحف الأمريكية منسوب لمصادر عديدة مفاده أن مئات من رجال القاعدة يتجهون إلي العراق.

دار الحديث عن الوضع في العراق ثم عن أحداث الشغب وإشاعة تبين عدم صحتها عن حريق في مبني إداري بالمدينة.

انضمت إلينا مديرة المعهد بعد فترة ثم غادرنا المقهي وولجنا مبني البلدية. وقفنا في قاعة رحبة إلي جوار بوفيه كبير يدور بجدرانها. وتحدث عمدة المدينة عن تاريخ المبني وكيف بدأ إنشاؤه في عهد لويس الرابع عشر. ثم اصطففنا أمام البوفيه المفتوح الذي حفل بألوان متنوعة من الطعام تصدرها السلمون المدخن والقواقع

والجمبري وعجينة الأفوكاتو والزيتون الأسود والأخضر والحمص والباذنجان المقلي. حملنا أطباقنا إلي الموائد التي رصت علي جانب. وجاء جلوسي إلي جوار صبية قصيرة القامة صبوح الوجه تتمتع ببشرة بيضاء رائقة. كانت قد خلعت معطفها فكشفت عن كتفين عاريتن رائعتين ورقبة طويلة منتفخة قليلاً في قاعدتها. أما وجهها فقد علته تقطيبة متجهمة.

لم يشجعني تجهمها علي الحديث إليها. ولم يلبث دور الحلوي أن جاء ووزع النوادل أطباقا منها علي الموائد، وفقدت الفتاة تحفظها فارتدت عوينات طبية بحماس واختارت قطعة. ثم خلعت العوينات وبعد قليل ارتدتها واختارت قطعة ثانية.

علقت علي حماسها فقالت إنها لا تزال صغيرة وتحتاج إلي السكريات. سألتها عن سبب اهتمامها بالمؤتمر.

قالت: أدرس في كلية الآداب. وأعطانا الأستاذ واجبًا بشأن مداولاته.

أضافت بعد لحظة: أنا أعيش بمفردي فأبي منفصل عن أمي ويعيش في باريس وأمي مديرة لسوبر ماركت في لاروشيل. ونحن دائما في صراع. قالت إنها ترغب في رؤية الأهرامات. وسألتني: هل صحيح أن بناتها جئن من كوكب آخر؟

اقترب مني ربيع وقال:

– ايزابيل ستوصلك إلي الفندق عندما تنتهي.

قمت واقفا وأنا أقول: لقد انتهيت فعلا.

ودَّعت الفتاة وتبعت ربيع إلي الخارج. كانت ايزابيل واقفة عند المدخل مستعدة للانصراف. أخذتنا إلي سيارتها المركونة علي مقربة. وجلست إلي جوارها. قالت كأنما

تستأنف حديثا سابقا: كنت أتمني أن نسهر سويا لكن لا بد أن أعود إلي قريتنا الليلة

بلغنا الفندق فغادرنا السيارة. قبلتني في خدي قائلة:

– أمي بمفردها وأخشي عليها من الاضطرابات.

التفتت إلي ربيع ودخلَت في أحضانه دافنة رأسها في عنقه.

أعطيتهما ظهري وولجت الفندق

القسم الثاني

باريس

13

باريس. مونبارناس. أهلا وسهلا مرة أخري.

عبرت الأنفاق الطويلة وأنا أجر حقيبتي خلفي. ومررت بفتاة جميلة في أحد الأركان وبيدها جيتار. كانت تغني وتعزف دون أن ترفع بصرها عن نوتة موسيقية مبسوطة أمامها. وكان بعض المارة يلقون بعملات معدنية في صحن أمامها.

وجدت نفسي عند المخرج وسط جمع حاشد من أفريقيين يرتدون طواقي بيضاء مخرمة. كانوا يستقبلون فيما يبدو أحد زعمائهم. وقدرت أنهم من جيبوتي أو جزر القمر. وكان هناك عدد من رجال الشرطة.

رأيت اسمي فوق لافتة صغيرة يحملها شاب. قدمت نفسي إليه وصحبته إلي سيارته. سألته عن أخبار الحوادث فقال إن عدد السيارات المحروقة ليلة الأمس في كل فرنسا بلغ ألفًا ومائتي سيارة. وأعلن الرئيس شيراك حالة الطوارئ.

سألت: وباريس؟

هز الفتي كتفيه وقال: كما في السابق. بعض السيارات المحروقة هنا وهناك.

كان الجو باردا ومطيرا. بلغنا وسط المدينة بعد قرابة ساعة انتشر خلالها الظلام. وكانت هناك حشود غير طبيعية من رجال الشرطة في كل مكان. توقفنا أمام فندق متواضع من خمسة طوابق. وبعد أن دخلت غرفتي التقينا من جديد في البار بالطابق الأول.

قدمني إلي فتاة بيضاء قصيرة ممتلئة تدعي إميلي ذات عينين زرقاوين جميلتين وشعر قصير، وتصدر عن ملابسها رائحة عرق زاعقة.

خاطبتني بانجليزية متكلفة وعندما قلت لها إني أفهم الفرنسية أصرت علي المضي في الحديث بالإنجليزية.

تحدثت عن نشاط جمعية المؤرخين وأهدافها. وقالت إنهم ينوون في المستقبل تنظيم لقاء بين الشبان الفلسطينيين والإسرائيليين للتقريب ودحض العنف.

قالت وهي تتنهد في تكلف: العمل مع العرب صعب بسبب اختلاف اللغات بين المشرق والمغرب.

قلت: الأمر ليس صعبا بهذه الدرجة فاللغة الفصحي مفهومة من الجميع لكن المشكلة أن الاستعمار الفرنسي خلق أجيالا من المثقفين لا تعرف العربية وتفكر أولا بالفرنسية.

لم يبد عليها الاقتناع وأصرت علي رأيها.

انضمت إلينا سيدة مغربية. قصيرة بيضاء ممتلئة بماكياج ثقيل تدعي فريدة. كانت تعمل في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان. وكشفت تعليقاتها عن خفة ظل.

ظهر رفيق وشخص آخر في مدخل البار وقدمني إلي زميله. كان فرنسيا في الأربعينيات ممتلئ الجسم مفتول العضلات. وكان بروفيسورا في الأنثروبولوجي والمسئول عن تنظيم المؤتمر ويدعي كريستيان لونفي.

أعطاني رفيق نسخة من أوراق المؤتمر وسألني كريستيان عن الموضوع الذي سأتكلم فيه.

قلت: سأكتفي بالمشاركة في المناقشات وربما تحدثت عن حملة نابليون علي مصر.

قال: عظيم.

وجه حديثه إلي رفيق: هل قرأت ما قاله نائب اشتراكي في البرلمان؟ امتدح ما أسماه بـ"العمل الذي أنجزته فرنسا في أراض ناكرة للجميل".

قال رفيق: ليس غريبا من أحد أعضاء الحزب الاشتراكي. رغم أن رئيس كتلتهم بالبرلمان عارض القانون >

هوامش

1 راجع الدراسة التفصيلية للدكتورة ليلي عنان بعنوان:"كيف وظف نابليون الفن للدعاية لحملته علي مصر"، "مائتا عام علي الحملة الفرنسية"، القاهرة 2008

تناولنا العشاء معا وصعدت إلي غرفتي علي الفور. اغتسلت ثم ملأت كأسا من الويسكي وجلست أتصفح الأوراق التي أعطانيها رفيق. كان هناك برنامج الجلسات وكوبونات خاصة بطعام الغداء والعشاء. ثم ملف عن قانون 158 الصادر في 23 فبراير 2005(1). المادة الأولي: "تعرب الأمة عن امتنانها للنساء والرجال الذين شاركوا في المهمة التي أنجزتها فرنسا في الأقاليم الفرنسية القديمة في الجزائر والمغرب وتونس وفي الهند الصينية، كما في الأراضي التي خضعت لاحقا للسيادة الفرنسية".

المادة الثالثة:" يحظر توجيه إساءة لشخص أو جماعة أو التشهير بهم بسبب انتمائه الحقيقي أو المزعوم للهاركي (فرنسيو الجزائر) أو بسبب كونهم من قدامي أعضاء التشكيلات الإضافية أو الاحتياطية".

المادة الرابعة: "تعترف المناهج الدراسية بصفة خاصة بالدورالإيجابي للوجود الفرنسي فيما وراء البحار وبالأخص في شمال أفريقيا وتمنح لتاريخ وتضحيات مقاتلي الجيش الفرنسي في هذه الأراضي المكانة الرفيعة التي يستحقونها".

المادة الثالثة عشرة: " يحق للأفراد الذين يتمتعون بالجنسية الفرنسية في تاريخ نشر هذا القانون والذين علي خلفية أحداث الجزائر خلال الفترة من 31 أكتوبر 1954 إلي 3 يوليو 1962 قد أدينوا أو فرضت عليهم عقوبات صدر عنها عفو عام أو إجراءات طرد إدارية أو احتجاز أو إقامة جبرية والذين اضطروا نتيجة لذلك إلي ترك نشاطهم المهني(...) يحق لهم المطالبة بتعويض إجمالي".

وجاء بالملف أن المادة الثالثة عشرة علي وجه الأخص هوجمت بشدة لكونها أتت في صالح إرهابي منظمة الجيش السري الفرنسي(2) الذين سبق إدانتهم.

وفي موضع آخر قرأت أن القانون حظي إجمالا بمعارضة واسعة من جانب عدد من المؤرخين (كلود ليوزو مثلا) الذين رفضوا أن يتم تدريس التاريخ في صيغة رسمية معتمدة وهو ما يرمي القانون إلي فرضه. وانضم إليهم أكثرمن ألف من الأساتذة الجامعيين والباحثين وأعضاء "جمعية أساتذة التاريخ والجغرافيا في التعليم العام".وقدمت احتجاجات أخري وقع عليها عشرات الألوف. وفي الوقت الذي أيد فيه الاشتراكيون واليمينيون القانون انفرد الشيوعيون بمعارضته وبالتصويت ضده.

ونشط برلمانيون للتنديد بهذا القانون منهم كريستينا توبيرا التي وصفته بالمفجع لكونه قانونا فئويا صيغ لإرضاء بعض أوساط المتعاونين مع سلطات الاحتلال.

وانفردت إحدي الصفحات بعنوان "نداء الحرية للتاريخ" وفيه طالب تسعة عشر مؤرخا بإلغاء جميع القوانين التاريخيةالتي تشمل قانون 23 فبراير 2005 وقانون جايسو(3)، وكما تضم من ناحية أخري القانون الذي يفرض الاعتراف بإبادة الأرمن لكون هذه القوانين:"تقيد حرية المؤرخ وتملي عليه تحت طائلة العقوبة ما يجب أن يبحثه وما يجب أن يجده". وأكد النداء علي أن المؤرخ "لا يقبل بأي قواعد ثابتة ولا يخضع لأي محظورات"(4).

14

استيقظت مبكرا وتناولت إفطاري في قاعة الطعام. وكنت في مزاج رائق عطله أمريكي تحدث بصوت مرتفع في محمول وهو يتحرك في أرجاء القاعة. فهمت أنه ممثل لشركة توزيع شيء ما له علاقة بالبترول ويطالب بإرسال الشيك فورا.

ألقيت نظرة علي الصحف ووجدت أن الحكومة الفرنسية قررت حظر التجوال في مناطق العنف المستمر في الضواحي والأقاليم الفرنسية لليوم الثاني عشر. كما استدعت عشرة آلاف من رجال الشرطة واستعانت بطائرات الهليكوبتر في مطاردة الثائرين. ومن ناحيةأخري قررت زيادة المنح الدراسية لشبان الضواحي وإقامة مراكز توظيف لهم.

وأصدر وزير الداخلية ساركوزي أمرا بترحيل الأجانب الذين تثبت إدانتهم في الحوادث حتي من يحملون منهم تأشيرة إقامة مما أثار انتقاد اليسار.

وكانت هناك صورة لشباب يلقون حجارة وقنابل حارقة علي رجال الشرطة. كما حدث إضرام نار في سيارات ببروكسل مما أثار تكهنات باحتمال امتداد الشغب إلي بقية الدول الأوروبية.

شربت قهوتي وخرجت إلي الشارع لأتمشي. كنت راضيا لأني غير مقيد بموعد أو مؤتمر. تمشيت طويلا في الشوارع النظيفة المشجرة. وأوشكت أن اصطدم بشاب أوقفته رفيقته فجأة وقبلته في فمه.

وجدت نفسي قريبا من تقاطع شارعي سان جيرمان و سان ميشيل فاتجهت إلي حديقة لوكسمبورج. تجولت في فضائها الشاسع الذي تنتشر به المساقط المائية وتماثيل الشخصيات الأدبية والتاريخية الفرنسية.

جلست وحيدا تقريبا وسطعت شمس ضعيفة.استمتعت بالهدوء والخضرة.ثم عدت إلي الفندق فتناولت طعام الغداء ونعمت بقيلولة طويلة.

جلست أقرأ بعد الظهر ثم غالبت كسلي وخرجت لأتمشي. مررت بدار للسينما. لم تشجعني الأفلام المعروضة علي خيار الفرجة. فواصلت السير. واكتشفت أني فقدت معالم الطريق فشعرت بالانزعاج.

اعترضني شاب في سترة من الجلد الأسود وصاح بي: ابتسم!

ابتعدت عنه واستأنفت السير. وارتحت عندما تبينت معالم الطريق فعدت فورا إلي الفندق.

تلفن لي دانييل ودعاني لزيارته هو وزوجته المغربية. رحبت بالأمر. وانتظرته في مدخل الفندق.

جاء في معطف أنيق وكاب صوفي. قال إنه باع سيارته وجاء بالباص. كان في مثل طولي وفي السبعين.

كنت قد تعرفت به في مصر، حيث عمل ممثلا لشركة أدوية فرنسية في شركة مشتركة مع مصريين. ثم حدثت مشكلة. وحسب قوله كان ضحية الشريكين المصريين اللذين نصبا عليه. وصار مطلوبا للعدالة في مصر.

وكان واسع الثقافة مغرما بالموسيقي الكلاسيكية، وطالما قضينا الوقت في منزله بالقاهرة نستمع إلي التسجيلات المختلفة.

سألته عن عملية البروستاتا.

قال: كل شئ علي ما يرام سوي أني لم أعد أنتصب. واليوم أزلت نقاطا سرطانية من جلدي.

استفسرت عن زوجته، فقال إنها تعمل يومين في الأسبوع في بوتيك مقابل 30 يورو لليوم.

داعب حسنة بارزة في ذقنه ثم قال: سأقترض غدا برهن المسكن وأشتري أعواما من معاشي لتأمين حياة رئيفة في حالة موتي.

أخذنا المترو وكانت لديه بطاقة اشتراك فدفع لي يورو ونصفا ثمنا لبطاقتي.وجلسنا في مواجهة شابين حمل كل منهما فتاة فوق حجره.

صعدنا إلي الشقة التي اشتراها بعد عودته من مصر. وتقع أعلي مبني فاخر في حي برجوازي. لكن الشقة كانت واطئة السقف تتألف من غرفة وصالة واسعة ومطبخ. في الغالب كانت في السابق مخصصة للخدم أو لحارس المبني.

استقبلتنا رئيفة في رداء مغربي جميل. كانت أطول من دانييل ذات قدّ رشيق وبشرة سمراء وملامح أفريقية. وقدمتنا إلي صاحبة الحانوت التي تعمل به وزوجها الصربي الضخم. وإلي فتاة مصرية ذات يدين كبيرتين علي غير العادة.

جلست بجوارالمصرية وعرفت أنها كانت متزوجة من صحفي مصري ثم تطلقا. وقالت إنها أرادت التخلص منه بالمجئ إلي فرنسا للدراسة فلحق بها وتزوجها من جديد ليحصل علي الإقامة ثم أقام معها ثلاثة شهور وأخيرا عاد إلي مصر.

كانت الأرائك ذات الأغطية المغربية موزعة في أركان القاعة وفي منتصفها بحيث خلقت الانطباع بوجود قاعتين منفصلتين. وتوزعت علي الجدران صور فوتوغرافية لدانييل في البلاد الآسيوية والأفريقية التي عمل بها. ورأيت الحمامة البيضاء التي أحضرتها رئيفة معها من مصر. كانت واقفة في استسلام داخل قفص مفتوح.

قالت رئيفة: الحمامة تغرد طول الوقت لكنها تصمت عندما أكون مكتئبة.

تناولتها بيدي ورفعتها إلي أعلي فتحركت واستقرت فوق رأسي ثم تجولت فوق المائدة إلي أن بدأت رئيفة في إعداد المائدة فوضعتها في القفص دون أن تغلقه. وظلت الحمامة في القفص المفتوح دون أن تبرحه.

قدمت لنا رئيفة كرات لحم مفروم في صوص مع سلطة تفاح وبنجر وسبارجوس.وقال دانييل إنه مر بمظاهرة طلاب كانت تحطم حانوتا للمجوهرات.

قال الصربي: لا بد من إنزال الجيش لمواجهة المشاغبين.

قال دانييل: لو حدث هذا تكون الدكتاتورية والبونابرتية قد عادت إلي فرنسا.

قالت رئيفة: الناس تشكو من البطالة وكثير من العاملين يسكنون في الشوارع فيعودون من العمل إلي خيامهم. أما الشباب فضائع بلا مستقبل واضح، والكثيرون يهاجرون إلي كندا وأستراليا.

قالت المصرية: ساركوزي يستعد لاستلام الحكم وسينهي حق الإضراب والعلاج والدواء المكفولين للجميع عاملين وعاطلين.

قال الصربي:لا تجرؤ فتاة في الضواحي علي الخروج بعد السابعة مساء.

قالت زوجته: المسلمون جاوزوا الحد. وانتشر الحجاب في كل مكان.

انتحي بي دانييل جانبا ليقرأ لي فقرات من مذكرات يكتبها: كانت هناك فقرة عن رئيفة وعلاقتها بفضائها. حلقت طريقة السرد بعيدًا عن أي شيء واقعي أوملموس إنما

حوّمت من بعيد مؤكدة أنها –رئيفة– أقل ثقافة منه. ثم تلا علي مقتطفات من كتب فنشتاين وماري أرنو، وأني راند.

سألني: هل يمكن أن أكتب لك؟ لم يعد لدي من أكتب له.

وضع سيمفونية شوبرت الناقصة في المسجلة و تركني أنصت لها. وعاد إلي مائدة الطعام التي كان النقاش مستعرا حولها. وكنت منهمكا في الإنصات للموسيقي عندما سمعت صوت خبطة شديدة علي المنضدة وصوت دانييل يزعق: هذا منزل فرنسي.

كان حديثه موجها إلي رئيفة التي ردت عليه بضحكة استفزازية. وبدأ بينهما شجار مألوف سرعان ما انتهي.

15

قضيت الصباح التالي في مراجعة أوراقي استعدادا للمؤتمر. وقررت إعداد كلمة تنطلق من مذكرات تلميذ الجبرتي. وعند الظهر نزلت إلي قاعة الطعام. وبعد قليل فوجئت بربيع يلج القاعة.

قال إنه جاء للتو من بواتييه وسيبقي عدة أيام في باريس يتابع خلالها جلسات المؤتمر.

سألته: وحدك أو مع إيزابيل؟

قال: وحدي.

– هل حدث شغب في بواتييه؟

– لا. احترقت أمس مدرسة في بلفور وحدث شغب في تولوز

وعدة مدن أخري: ليل وستراسبورج ومارسيليا وليون.

أحضر طبقا من البوفيه المفتوح. وأشار إلي الصحيفة التي كنت أقرأها.

سألني: قرأت تصريح جان ماري لوبن زعيم الجبهة الوطنية اليمينية المتطرفة؟

قلت: ليس بعد.

قال: أعلن أن أحداث الشغب دليل علي صدق أطروحاته حول المشكلات التي يسببها العرب والأفارقة في فرنسا.

اقترح أن نذهب إلي مقهي يملكه يهودي تونسي حاصل علي دكتوراه في العلوم، له فلسفة خاصة فهو لا يهتم بالفلوس إنما يستمتع بالحياة:الصحاب والحشيش والموسيقي وقليل من العمل. ولهذا افتتح هذا المقهي.

مشينا طويلا حتي حي قرب ميدان قديم وكان المقهي يقع علي إحدي النواصي بجوار فندق صغير، قال ربيع إن الجزائريين يتجمعون فيه ويسكن كل عدد منهم في غرفة واحدة.

قدمني ربيع إلي صاحبه سامي. وكان قصيرا سمينا نصف أصلع بشعر منفوش علي جانبي رأسه، وتطل عيناه الذكيتان من وراء عوينات طبية. ويبدو كأنه لم يستحم منذ زمن. وقدرت عمره ببداية الأربعينيات.

جلسنا علي أرائك ممتدة بحذاء الجدران. واحتل سامي مكانه خلف كاونتر عليه صنبور مياه وجهاز كمبيوتربجوانب متسخة وشاشة رفيعة حديثة مضاءة. وبجوارها مجموعة من أنابيب الألوان وخلفه رفوف تحمل مختلف أنواع الأكواب الزجاجية الملونة. وتناثرت الموائد الصغيرة في أرجاء المكان في غير نظام وحولها مقاعد متهالكة.

وعلقت فوق الجدران التي تحتاج بشدة إلي الدهان أنواع مختلفة من القيثارات وآلات التامبورة والعود وعدة طبلات ورق وأنواع من الزليج القديم المزركش وعقود من الخرز. وتدلت من السقف مصابيح سبوت لايت صغيرة.

كان المكان ذا طابع غريب أقرب إلي حانوت عاديات ويحتاج إلي كثير من النظام والنظافة.

استخرج سامي زجاجة نبيذ أحمرمن أسفل الكونتر ووزع علينا كؤوسه. ثم وقف واتجه إلي ركن جعل فيه كهفا صغيرا من النحاس امتلأ بقطع الفحم. أمسك بماشة وحرك الفحم حتي توهجت النار. التقط بعضها ووضعه فوق حجر نارجيلة زجاجية. والتقط بضعة أنفاس وهو يعود إلي مقعده. وفاحت رائحة الحشيش في المكان.

توقعت أن يدير النارجيلة علينا ونويت القبول لكنه لم يفعل.

قال لي ربيع: سامي عنده أغان مصرية قديمة لا توجد في مكان آخر. هل سمعت عن المنيلاوي؟

أجبت بالنفي.

عبث سامي بفأرة الكمبيوتر ورأيت قائمة تظهر علي الشاشة ثم ارتفع صوت مصري بأغنية قديمة.

قال سامي بعربية سليمة في اللهجة التونسية: عندي أيضا تسجيلات نادرة لمغن عراقي يهودي ذي صوت قوي. هاجر إلي إسرائيل في الخمسينيات وقرأ القرآن من إذاعتها.

أقبل علينا رجل خمسيني بعينيه آثار نعاس. قال لي ربيع إنه رسام مغربي معروف.

سأله عن صحته فحكي لنا كيف أراد لأول مرة في حياته أن يساعد شخصا علي صعود الرصيف فوقع علي رأسه وكسرت يداه، كما أصيب رأسه، ولولا التأمين الصحي ما أمكنه تحمل نفقات العلاج. تناول الرسام بعض النبيذ وجلس يحدق في الفراغ ثم التقط ورقة رسم بيضاء من خلف شاشة الكمبيوتر وأسندها إلي الكونتر. بلل قطعة قطن من زجاجة بها مداد أسود ودهن بها الورقة ثم تأملها. وتناول ريشة وبدأ يعمل بها.

ودون أن يتحرك سامي من مكانه مد يده إلي صنبور المياه فملأ كنكة كبيرة منه ودس بها قليلا من السكر والبن ثم قام إلي كهف الفحم فوضعها فوقه. ثم هبط درجا رفيعا في الركن. وظهر بعد لحظة حاملا نايا قديما. جلس وقرب الناي من فمه وعزف بضع نغمات من الموسيقي الأندلسية المغربية. ثم وضعه جانبا وهبط الدرج من جديد.

في هذه المرة عاد بعود دقيق الصنع فجرب العزف عليه. كان يتجنب النظر إلي رغم وثوقي من أنه يستعرض نفسه أمامي. مزق الرسام الورقة التي كان يخطط فوقها وأعطي سامي ورقة بعشرين يورو ليشتري لنا زجاجة نبيذ جديدة.

دخل شاب بعينين غائرتين. وقال لي ربيع إنه عازف إيراني. دار حول الكونتر وجلس إلي جوار سامي.

قدم له سامي فنجانا من القهوة واختفي في الطابق الأسفل ثم عاد بتمثال أسود متوسط الحجم. تعرفت فيه علي عمل مختار(5) الشهير "الفلاحة حاملة الجرة".

قلت إنه تقليد جيد.

قال: بالعكس. هذه هي النسخة الأصلية التي عرضها مختار في باريس سنة 1930.اشتريتها من السوق السوداء بـ 22 ألف يورو. وجه ربيع الحديث إلي الإيراني وسأله عن مكانة علي بن أبي طالب لدي الشيعة وعن المقصود بتعبير آية الله. وحرك سامي الفأرة فتردد صوت غريب، قال إنه لمغنية إيرانية مشهورة. ولم ألبث أن تعرفت علي موسيقي أغنية "إفرح يا قلبي" لأم كلثوم.

ولج المقهي شابان جلسا بالقرب منا. قدم لي سامي أحدهما علي أنه مؤلف موسيقي تركي. وأوقف الأغنية الإيرانية ثم أسمعنا قطعة موسيقية جميلة للشاب.

دخلت فتاة شقراء فهبّ لها سامي واقفا. تبادلا بضع عبارات فهمت منها أنها تعمل في مطعم مجاور. أبدت اهتماما بمسبحة من الخرز وسألته عن ثمنها. قال سامي: ادفعي ما تشائين.

أعطته الفتاة في خجل بضعة يوروهات فدسها أسفل الكونتر دون أن يطلع عليها.

انصرفت الفتاة وغاب سامي في الأسفل وعاد حاملاً ورقة عرضها علي. كانت صفحة من كتاب قديم باللغة الفارسية.

قال في زهو: هذه ورقة من الشاهنامة الأصلية.

حملت الورقة في رفق ووقفت. اقتربت من أحد المصابيح ورفعت الورقة في الضوء أتأملها. وشعرت به قد هبط خلف الكونتر وعاد بكاميرا كبيرة الحجم غريبة الشكل وجهها نحوي.

تركته يصورني ثم أعدت إليه الورقة.

واقترح ربيع الانصراف بعد قليل فغادرنا المقهي.

16

سألني رفيق: أين كنت بالأمس؟ تلفنت لك عدة مرات.

رويت له ما حدث متعجبا من شخصية سامي. وجم وطلب مني أن أذكر له بالتفصيل وقائع الزيارة.

قال: سامي معروف بعلاقاته الغريبة. وقصة التصوير تؤكدها.

سألت: كيف؟

قال: عندما يتعرف عميل بأحد أجهزة الاستخبارات علي شخص جديد مهم ويقدم تقريرا بذلك لسادته. ما هو الدليل علي صدقه؟

قلت: صورة للشخص تبدو فيها ملامح المكان.

– تماما.

سألت: وما فائدتي له؟

قال: لا أعرف. وربما هو أيضا لا يعرف. إنما هو احتياط للمستقبل. صورة للأرشيف قد تنفع في يوم من الأيام.

قلت: وربيع؟

قال: يعمل معه بالتأكيد.

قلت: لديك مخ تآمري.

قال: سامي يستخدم المقهي لجمع الأخبار والتعرف بالعرب والأجانب المقيمين في باريس.

كنا نتمشي في سان جيرمان في جو بارد لم يمنع البنات من كشف بطونهن وفتحات صدورهن. وتوقفنا عدة مرات أمام المكتبات التي عرضت كتبها الرخيصة في عرض الشارع. وكان الزحام كبيرا والناس تقبل علي الشراء.

مررنا بمقهي كلوني ناصية شارع سان ميشيل. وقال رفيق: ثلاثون في المائة من الفرنسيين خسروا كل شيء عندما عجزوا عن دفع أقساط مشترياتهم. وبعضهم يجلس طول النهار في المقاهي حيث يكفي أن تطلب فنجانا من القهوة فقط طول اليوم >

هوامش

(1) اقتصرت الأوراق علي المواد التالية من القانون التي وصفتها بأنها مثيرة للجدل.

(2) الجيش الفرنسي السري هو التشكيل العسكري الذي كونه فرنسيو الجزائر للدفاع عن تبعية الجزائر لفرنسا ومقاومة مخططات ديجول للانسحاب منها.

(3) في عام 1990 أقر البرلمان الفرنسي قانونا اقترحه النائب الشيوعي جايسو Gayssot يجرم التشكيك في حقيقة المحرقة (الهولوكوست) التي تعرض لها اليهود إبان العهد النازي. وطبقا لهذا القانون لا يستطيع الباحثون مناقشة وقوع المحرقة من عدمه.

(4) الترجمة العربية لمواد القانون للدكتورة رانيا فتحي.

(5) محمود مختار هو رائد النحت المصري الحديث صاحب التماثيل الشهيرة:"نهضة مصر" (1928)، "سعد زغلول"، "الخماسين".

قلت: من يشهد حيوية الشارع لا يصدق الحديث الدائم عن الضائقة الاقتصادية التي تشهدها فرنسا.

قال: لا تصدق أبدا أن الفرنسيين يعانون اقتصاديا. فالحكام يجدون دائما طريقة لترحيل أي انكماش بحيث يعاني منه الآخرون. عمالهم أو العمال الأجانب أو شعوب العالم الثالث. انظر حولك إلي المطاعم. إنهم يأكلون طول الوقت. وما يتخلف عنهم من خبز فقط يكفي لإطعام قارة أفريقيا. هذه معلومة من الاحصاءات الرسمية.

رأيت مجموعة من الرجال والنساء في ملابس رثة اقتعدوا الرصيف قرب أحد المطاعم. قال رفيق: إنهم من لاجئي رومانيا الذين ينتزعون اليوم لقمة العرب.

دخلنا عدة مكتبات ثم تناولنا طعام الغداء سويا في الفندق. وحصلت علي قيلولتي الممتعة. طلبت شايا من خدمة الغرف. وبعد قليل طلبت قهوة. وتصفحت أوراقي. وفي الساعة السابعة هبطت إلي البار لموعد عشاء مع إميلي وفريدة.

وجدت الأخيرة مع امرأة في منتصف الأربعينات أو أكثر قليلا، بعوينات طبية ووجه خالٍ من الماكياج تدعي سيلين. كانت كبيرة الجسم وترتدي بلوزة بيج وبنطلوناً كاجوال بنيا. وكان صدرها صغيرا لا تبدو تفاصيله.

قالت فريدة إن إميلي اعتذرت عن الحضور، ثم استأنفت حديثا سابقا عن مدينة نابولي وضجتها وقذارة شوارعها.

سألت سيلين إذا كانت قد زارت القاهرة.

قالت إنها فعلت منذ شهور.

ضحكنا جميعا. خلعت نظارتها ووضعتها أمامها فوق المائدة. وأشعلت سيجارة. كانت عيناها جميلتين شديدتي الزرقة، تحف بهما غضون خفيفة وكانت لها شفتان رفيعتان جافتان يعلوهما زغب خفيف، وأسنان متباعدة عن بعضها. ويبدو الإجهاد علي وجهها إلي أن تضحك فتدب فيه الحيوية.

انطلقت فريدة في حديث عن الرقابة في العالم العربي مستشهدة بمصادرة ديوان أبي نواس أخيرا في مصر. وعددت حالات الاعتداء علي الكتاب والشعراء في الجزائر والأردن والسعودية ومصر. ذكرت الاعتداء علي نجيب محفوظ سنة 1994وقالت إن العملية بدأت في مصر سنة 1985 بإدانة كتاب ألف ليلة وليلة بتهمة المس بالأخلاق ومصادرة 3 آلاف نسخة منه من معرض القاهرة الدولي للكتاب.

قلت: إن عملية المصادرة والرقابة بدأت قبل ذلك بكثير. وضربت مثلا بكتاب طه حسين عن الشعر الجاهلي سنة 1926. واستدركت قائلا: وقبل ذلك أيضا فمحمد علي اشترط أن يطلع علي موضوعات جريدة "الوقائع المصرية" قبل نشرها.

قالت: في العالم العربي بؤس سياسي وحلول أمنية وديكتاتورية. والرقابة ليست إدارية فقط وإنما قضائية ومجتمعية أيضا.

قلت: الرقابة موجودة في كل مكان.

حكيت لهما قصة البروفيسور الأمريكي الذي تخلصت منه جامعته الأمريكية بسبب كتابه عن تاريخ التوراة(1). وأشرت إلي ما حدث لجارودي بسبب كتابه عن الأساطير المؤسسية لدولة إسرائيل.

لم تعلق إحداهما بشيء، فحكيت قصة المحاضرة التي أدليت بها في جمعية للمصريين الأمريكان في نيويورك وكيف خرج الحاضرون واحدا بعد الآخر أثناء كلمتي احتجاجا علي منافاتها الأخلاق العامة. ولم يبق غير عدد قليل للغاية ممن لا يعرفون اللغة العربية.(2).

شجعتني ابتساماتاهما علي الاستطراد فذكرت لهما نكتة ابن أحد كبار الحكام الذي يملك شقة في الاسكندرية وواحدة في شرم الشيخ وثالثة في أسوان ويرغب في فتحها علي بعض.

سألتني سيلين: إلي متي سأبقي، فقلت: حتي نهاية المؤتمر. قالت إنها تدير مؤسسة تربوية لأبناء المهاجرين في تولوز هدفها مساعدتهم علي الاندماج في المجتمع الفرنسي.

كان صوتها رقيقا خافت النبرة.

تذكرت أن قلمي لم يعد صالحا للكتابة. سألتهما إذا كانا بوسعهما إقراضي واحدا. فأعطتني سيلين قلما صينيا.

اعتذرت عن الانضمام إلينا في العشاء لأنها تشعر بالتعب وباحتقان في الحلق. فتناولناه بدونها. ثم خرجنا إلي الطريق وتمشينا قليلا. وقالت فريدة: إن المرأة العربية لا تستطيع التمشية هكذا في الشوارع العربية. وهي لا تملك شيئا لنفسها.

عارضتها قائلا: المرأة في مصر قوية علي عكس ما يتصور الناس. فإذا ضايقها زوجها مزقته بالساطور ووضعت أشلاءه في كيس وألقت به في الشارع. وعددت لها حوادث من هذا النوع شاعت في الفترة الأخيرة.

وأضفت ضاحكا: أغلب الأزواج المصريين ينامون كالذئاب بعين واحدة.

عدنا إلي الفندق بعد فترة وصعدت إلي غرفتي. حاولت العمل لكني لم أجد حماسا لذلك فأدرت التليفزيون. وتنقلت بين قنوات عديدة تعرض نفس الموضوعات: الجرائم الحية والمتخيلة والتهديدات القادمة من الفضاء الخارجي. ووجدت قناة بها إعلانات عن مرافقات ومرافقين وتلاها فيلم إيروتيكي سخيف عن زوج يتظاهر بأنه لص يهاجم زوجته ويضاجعها.

أغلقت التليفزيون وأخذت أدويتي ونمت.

17

عندما دخلت المطعم في الصباح التقيت بفريدة. أشارت إلي حيث تجلس مع سيلين ودعتني للانضمام إليهما.

اتجهت إلي البوفيه ولمحت سيلين تتطلع نحوي منتظرة أن أرفع عيني نحوها ففعلت وحييتها وسألتها بالإشارة عن حلقها فأومأت بأنه أفضل. اخترت شريحة مرتدلا وجبن وكرواسون وزبدًا ومربي وانضممت إليهما.

كانت ترتدي بلوفرا بألوان مزركشة فوق بلوزة من ألوان مقاربة وكانت عيناها مكحلتين بلا نظارة فتضاعف جمالهما. ولاحظت أنهما عينان ملغزتان لا تفصحان عن

مشاعرها التي تنكشف فقط خلال ابتسامة أو تقطيبة (عرفت بعد ذلك كيف أخطئ في تفسير نظراتها، فقد تكون باسمة وهي في أشد حالات الغضب).

لم يعجبني الكرواسون الذي أكلته مدهونا بمادة سكرية.

قالت سيلين: لم يعد الكرواسون كما كان قبل وفاة أكبر خباز فرنسي منذ عامين. سقطت به طائرته الهليوكبتر مع أسرته وهو في الطريق إلي جزيرة يملكها.

سألتهما عن الأخبار. قالت فريدة: هاجم الشباب السيارات في مدينة ليون وقذفوا الشرطة بالحجارة، فردت عليهم بقنابل الغاز.

أضافت سيلين: أُحرقت مدرسة حضانة في مدينة كارابنتراس الجنوبية.

غادرنا الفندق وانطلقنا في شارع فوبور سان جاك وكانت تتجاوزني طولا ببضعة سنتيمترات. علقتُ علي تنظيم انتظار السيارات في أماكن محددة وفقا لقواعد مرسومة فوق الرصيف وتحته. تلقت تعليقي في دهشة ثم استدركت:

–آه. أنت تقارن بالقاهرة. لا تفعل.

قلت لها: أكثر ما يلفت النظر هو أن الأرصفة صالحة للسير رغم كتل مخلفات الكلاب الموجودة في كل خطوة والتي تنطق بارتفاع مستوي معيشتها.

فكرت لحظة وأضافت: الشوارع نظيفة لأن الأمطارالسخية تغسلها بانتظام، وهناك أيضا العناية المستمرة التي وفرها الاستقرار، فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية لم تتعرض أوروبا لعدوان عسكري مدمر مثلما حدث لنا عدة مرات.

والعائد الناتج عن تدمير شوارع مدن أخري في أفريقيا وشرق آسيا.

انتقلنا إلي بوليفار بورت رويال. واختفت السحب فجأة وسطعت شمس قوية، وسارع الشباب بالتخفف من الملابس بسرعة البرق. ومر الترام دون صوت لأنه يسير علي كاوتشوك.

تمنيت لو كنت أصغر سنا لألقي بحافظتي الجلدية وما بها من أوراق جانبا هي وسترتي الثقيلة وكنزتي الصوفية، وأضرب عرض الحائط بالمؤتمر، لأرتمي علي مقعد فوق الرصيف بجوار فتاة كشفت عن ساقين متناسقتين عرضتهما للشمس والأنظار.

بعد عدة مبان عامة وسكنية بدأت المطاعم، وقد قبع خلف واجهاتها الزجاجية الأنيقة طلاب طعام الغداء.

وصلت إلي التقاطع، فاشتريت صحيفة عربية من حانوت للصحف، وقلمًا قدمته لسيلين.

قلت: سأحتفظ بقلمك تذكارا.

انحدرنا في شارع فوجئت بأنه يحمل اسم مونج. توقفت منفعلا

سألتها إن كانت تعرف من هو مونج؟

أجابت بالنفي.

قلت: هو من أعظم الشخصيات تعددا في الكفاءات في تاريخ العلم، وكان من العلماء الذين أخذهم نابليون معه إلي مصر. وسكن بالقاهرة في قصر بيت السناري بحارة صغيرة في مواجهة مسجد السيدة زينب. وزار نابليون الحارة وأطلق اسم مونج عليها قبل أن تطلق بلدية باريس اسمه علي هذا الشارع(3).

بلغنا الجامعة. وقبل أن نلج المبني استوقفتني فتاة سودانية. قالت إننا التقينا منذ عدة سنوات في الخرطوم، وإنها اضطرت إلي مغادرة السودان هي وزوجها وأطفالها الثلاثة بعد أن استولي الجنرال عمر البشير علي السلطة بمعونة الجبهة الإسلامية. سألتها: وماذا تفعلين هنا؟

قالت: دراسات عليا لمدة ثلاث سنوات.

قلت: جيد. فلا بد أن تتغيرالأوضاع في السودان خلال تلك المدة.

قالت: أكيد. ثم ودعتني منصرفة.

تعتقد ذلك فعلا أم تجاريني فحسب؟

صعدنا إلي الطابق الثاني. دخلنا قاعة تضم قرابة مائة كرسي. امتلأت جدرانها بملصقات قديمة حال لونها. وفي طرفها منصة خلفها لافتة تحمل هذه العبارة: سؤال الاستعمار!

لم نجد مقعدين متجاورين فجلست وحدها وجلست في أحد الصفوف الأمامية. ولاحظت أن ملامح الحاضرين تتوزع بين أعراق مختلفة.

تفحصت الملصقات التي أحاطت بجدران القاعة. تألف أحدها من رسوم ملونة لثلاث رءوس، واحد أفريقي أسود والثاني عربي أسمر والثالث فيتنامي أصفر وأسفلها هذه العبارة: "ثلاثة ألوان وعلم واحد، امبراطورية واحدة".

وكان الملصق الثاني يدعو للتطوع في الفرقة الأجنبية وهي دعوة كررتها بقية الملصقات التي حال لونها محبذة مغامرة الذهاب إلي ما وراء البحار، ومعددة المكاسب التي يجنيها المتطوع.

صعد كريستيان إلي المنصة. وبسط صدره فبدا كالمصارعين. رحب بالحاضرين منوها بالمساندة التي تلقاها المؤتمر من "الحركة ضد العنصرية ومن أجل الصداقة بين الشعوب"، ثم قال: إنه لأمر يدعو للأسف أن نضطر لعقد مثل هذا المؤتمر ونناقش أمرا كان المظنون أنه قد حسم. ففي عام 1948 قال المفكر الفرنسي الراحل مانوني في كتابه الشهير عن سيكولوجية الاستعمار إنه ليس هناك احتلال طيب واحتلال شرير وإنما الاحتلال إبادة وتشريد ونهب واستنزاف. وكان يعلق علي المذبحة البشعة التي ارتكبتها القوات الفرنسية في جزيرة مدغشقر وراح ضحيتها أكثر من 100 ألف مواطن(4).

اختتم كريستيان قائلا: إن المتحدثين في هذه الجلسة سيتناولون الآثار بعيدة المدي التي تتركها القوة الاستعمارية خلفها وتعمل في البني السياسية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تكون غالبا هشة.

تحدث أستاذ جزائري للأدب عن سياسة الاستيعاب أو التذويب التي اخترعتها فرنسا وطبقتها في الجزائر التي احتلتها في 1830 واعتبرتها جزءا منها في 1948.

وقال إن المراجع الفرنسية تذكر أن الجنود الفرنسيين وصلوا الجزائر علي متن 675 سفينة تحت شعارات تخليصها من الاستبداد ومنح أهلها الحرية. وكان في انتظارهم الخازن الذي سلمهم مفاتيح خزائن بها أكثر من 50 مليون دولار. واشتغل الجنود بالنهب وأبادوا قبائل بأكملها واغتصبوا الأرض وأعطوها للمستوطنين الفرنسيين الذين بلغ عددهم –عند الاستقلال – أكثر من مليون مستوطن.

وقال: عملت فرنسا علي إيقاف النمو الحضاري والمجتمعي طوال 132 سنة. وحاولت طمس هوية الكوادر الوطنية، وتصفية الأسس المادية والمعنوية للمجتمع بضرب

وحدته القبلية والأسرية وبالتبشير الديني وبمحو اللغة العربية ومنع تعليمها ونشر اللغة والثقافة الفرنسيتين وضرب وحدة العرب والبربر.

قدم كريستيان المتحدث التالي، وهو أستاذ فرنسي للحضارة، قال إنه عاون المؤرخ المعرووف برينو باريلو خلال إعداده كتاباً عن ضحايا التفجيرات النووية الفرنسية (5) واكتشف أن الفرنسيين أجروا 17 تجربة نووية علي آلاف الجزائريين. وأن فرنسا استخدمت 42 ألف جزائري كفئران تجارب في تفجير أولي قنابلها النووية بصحراء رقان في أقصي الجنوب الجزائري.

وتكلم أستاذ أفريقي بعيون جاحظة. قال إن المستعمرات الأفريقية أمدت فرنسا بنصف مليون جندي مقاتل وربع مليون عامل صناعي. وإن الفرنسيين احتلوا ساحل العاج في 1893 واستقل رسميا في 1960. لكن فرنسا ربطته ببقية المستعمرات السابقة من خلال نقد يصدره البنك المركزي للاتحاد الاقتصادي والنقدي لأفريقيا الغربية، هو الفرنك الفرنسي الأفريقي الذي تضمنه الخزانة الفرنسية. وأدي هذا إلي اعتماد اقتصادي علي فرنسا بالإضافة إلي السياسي والثقافي. وطوال فترة الاحتلال عملت فرنسا علي أن يظل البلد معتمدا علي تصدير السلع الأولية. ونتيجة لذلك عاني ساحل العاج من الركود الاقتصادي عندما انخفضت الأسعار العالمية للكاكاو والبن في الثمانينيات وبداية التسعينيات مما أجبره علي الاعتماد كلية علي تصدير الخشب. وأدي ذلك بدوره إلي إزالة الغابات في أماكن واسعة مما يهدد الآن بفنائها وبالتغيير الكامل للتوازن البيئي. لأن نظام الغابات المطيرة جزء عضوي من توازن البيئة. وتؤدي إزالة الغابات إلي نقص الأوكسجين وفناء مجموعات كاملة من الحيوانات والحشرات كما تؤدي في المستقبل إلي المجاعات والأوبئة.

وقال: إن اللغة هي أخطر نتائج الاستعمار، فاللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في ساحل العاج رغم وجود أكثر من 60 جماعة عرقية بلهجات مختلفة.

كان المتحدث التالي أستاذًا للتاريخ بجامعة مونتريال الكندية.

قال: إن استعمار فيتنام جري في 1860 مع كمبوديا ولاووس. وكان الطب الغربي من بين الأسلحة التي استخدمها المحتلون لتبرير المشروع الاستعماري.

واستعرض عدة أمثلة لذلك، ثم قال: كانت الهند الصينية ميدانًا هامًا بالنسبة للصناعة الدوائية الفرنسية، تقوم فيه بتجربة وتوزيع الأدوية الجديدة وتحصل منه علي مواد نادرة أو غالية تستخدم في الأدوية وعقاقير التجميل مثل الكينين والكافور واليانسون.

وحرَّم الاحتلال علي الصيادلة الآسيويين بيع المنتجات الغربية وذلك بهدف حماية الصيادلة الفرنسيين من المنافسة المحلية. وفرضت قيود متعسفة علي الطب التقليدي الصيني والفيتنامي >

هوامش

1– راجع "أمريكانلي"

2– المرجع السابق.

3–كان الابن الأكبر لأحد مهرة الصناع، وبرزت موهبته الخارقة في الرياضيات وفي سن السادسة عشرة قُبل بمدرسة المهندسين الحربية علي الرغم من ضعة مولده. وقام بالتدريس بها بعد ذلك وأنشأ بها فرعا جديدا في الرياضيات هو الهندسة

الوصفية. ثم عين عضوا في أكاديمية العلوم عام 1780وأصبح مساعدا للافوازييه، أبي الكيمياء، الذي شهد لمونج باكتشاف تركيب الماء من الهيدروجين والأوكسجين. وفي ظل الثورة عمل وزيرا للبحرية وألف كتابا سمي "نصائح لعمال الحديد عن صناعة الصلب في أفران التمليط". وعمل في لجنة للموازين والمقاييس أدخلت النظام المتري، واشترك في تطيير بالون في الجو ووضع مع برتوليه طريقة لاستخرج ملح البارود من التربة العادية. وألَّف كتاباً عن فن صناعة المدافع، وكان عضوا نشيطا في نادي البعاقبة، وأهم مؤسسي مدرسة الفنون الهندسية، لكنه لم يحرك إصبعا ليساعد شريكه لافوازييه في النجاة من المقصلة.

. وفي مايو 1796 عين هو وبرتوليه عضوين في لجنة حكومية لفحص التحف الفنية والآثار في البلاد المفتوحة. وأوفد إلي إيطاليا حيث توثقت علاقته ببونابرت. وكانت اللجنة تتولي فحص المجموعات الفنية والمتاحف وتحدد ما يسلم منها للجمهورية الفرنسية. وجولة عابرة في متحف اللوفر تدلنا علي نجاح اللجنة التي يرجع إليها حصول فرنسا علي لوحة الموناليزا. وقد ذكر مونج لزوجته أن نقل التحف إلي فرنسا تطلب 300 صندوق كبير.

وكان مونج في طليعة من أبلغهم بونابرت بمشروع الحملة علي مصر. فبدأ في سبتمبر 1797– في الثانية والخمسين – في جمع الخرائط والمذكرات عن مصر وفي مارس من العام التالي طلب منه نابليون جمع حروف عربية للطباعة وطابعين وصفافين للحروف واختار أربعة طلاب من بين طلاب الطب المشارقة في روما للعمل كمترجمين، ثم اختاره نابليون عضواً في الحملة وعهد إليه بمهام خاصة وعامة، منها الإشراف علي شحن 800 زجاجة نبيذ من قبو شقيقه جوزيف و4000 زجاجة من نابولي وعربة فاخرة ذات عنانين لبونابرت.

4–كونت فرنسا، علي مدي تاريخها الحديث، إمبراطوريتين استعماريتين. بدأت الأولي في أعقاب الكشوف الجغرافية. وأسفرت حروب فرنسا الطويلة في القرنين 17و18عن فقد أكثر مستعمراتها، فلم يعد لها في الهند سوي مراكز تجارية قليلة بينما ضاعت في أمريكا أقاليم كثيرة، منها كندا ولويزيانا. ولم يكن فلاسفة التنوير كلهم ضد الاستعمار ولم يطلبوا التخلي عن المستعمرات، مثل مونتسكيو. بل إن فولتير الذي أدان الرق وافق علي ضرورة الاستيلاء علي كورسيكا وحبذ استعمار لويزيانا.

الإمبراطورية الثانية بدأت بغزو الجزائر واتسعت في عهد نابليون الثالث حتي اكتملت في عهد الجمهورية الثالثة (1870–1940)، حيث كونت فرنسا في أفريقيا اتحاد أفريقيا الغربية الفرنسية واتحاد أفريقيا الاستوائية الفرنسية ومستعمرات شرق أفريقيا وشمالها، وفي آسيا اتحاد الهند الصينية الفرنسية (فيتنام ولاوس وكمبوديا).

وقبل ذلك بسنة قال المفكر الفرنسي الكسي دي توكيفيل في تقريره عن استعمار الجزائر "لقد جعلنا المجتمع المسلم أكثر بؤسا وأكثر فوضي وأكثر جهلا وأكثر وحشية مما كان عليه قبل أن يعرفنا".

ولا يقتصر الأمر علي الاستعمار الفرنسي فكتاب تاريخ النهب الاستعماري لجون مارلو دلل علي أن الاحتلال البريطاني لمصر لم تكن له أهداف أو غايات تسبق غاية النهب.

وبعد أكثر من نصف قرن نجد أن طبعة جديدة من قاموس فرنسي يجري إعدادها تعرف الاستعمار بأنه "تقييم وتسريع استغلال الثروات الطبيعية في البلاد الأجنبية". ونجد من المؤرخين الفرنسيين من يدعو إلي إبراز" الإنجاز الجماعي لفرنسا فيما وراء

البحار"، ومن يزعم "أن ما يقال في الكتب عن تاريخ الاستعمار يوحي بأن العنف كان في أغلب الأوقات من جانب واحد".

الآن يتم الحديث عن المهمة التمدينية للاستعمار ناشر التقدم والحضارة والديمقراطية. ويعود الحديث عن العبء الذي يتحمله الرجل الأبيض إزاء الشعوب المستعبدة.

لكن هناك من المؤرخين من يعتقد عكس ذلك فيقول باسكال بلانشار pascal Planchard

. إن فرنسا في مأزق التناقض بين مبادئ الثورة الفرنسية وبين السلوك الاستعماري.

توقف لحظة ثم استطرد ببطء: هذا التناقض بالتحديد هو ما دعانا إلي التفكير في عقد هذا المؤتمر.

5–صدر الكتاب عام 2007 بعنوان "ضحايا التفجيرات النووية الفرنسية يتناولون الكلمة"وقال إن التجربة الأولي وقعت في 13 أكتوبر 1960 والثانية في ديسمبر من نفس العام. وإن فرنسا أجرت 210 تجارب نووية قبل سنة 1966

طلعت خلفي إلي حيث جلست سيلين. والتقت عيوننا. شعرت أننا قريبان من بعضنا البعض وعلي وشك أن نقول نفس الأشياء.

استقر نظري علي سيدة بدينة بالقرب منها يبدو عليها الانفعال. كانت ترتدي ثوبا أنيقا وتتدلي فوق صدرها سلسلة ذهبية علقت فيها عوينات طبية. بدأت مداخلات القاعة، فوقفت سيدة سوداء طويلة قالت:أنا من السنغال ولا أدافع عن

الاستعمار وإنما أحب أن أقرر إحدي الحقائق المهمة فلولا اللغة الفرنسية ما استطعنا نحن الأفريقيين أن نتفاهم مع بعضنا البعض.

رد عليها الأستاذ الأفريقي قائلا: كان من الممكن لإحدي اللغات المحلية أن تقوم بهذا الدور مما يجنب السكان الآثار السيكولوجية والثقافية الناتجة عن استخدام لغة غريبة تماما.

تحدث شاب ذو ملامح آسيوية فقال: إن الفرنسيين في البلاد التي احتلوها قاموا بتطعيم السكان ضد الجدري وبنوا المستشفيات التي تقدم العلاج المجاني.واتخذوا إجراءات صحية ضد الطاعون والكوليرا والملاريا.

رد عليه الأستاذ الكندي: هذه الإجراءات التي تحدثت عنها كانت من أجل تخفيض الوفيات لمضاعفة قوة العمل، فضلا عن حماية المحتلين أنفسهم. فهي إذن جزء من سياسة الاستعمار وليس لها من هدف آخر.

كانت السيدة البدينة تتلفت حولها طول الوقت في انفعال. وأخيرا طلبت الكلمة وقالت: أنا متعجبة لما يدور من حديث. لقد فقد ابني حياته في أفريقيا في خدمة العلم الفرنسي. وأشعر بالفجيعة علي التضحيات التي قدمها الفرنسيون وراء البحار في سبيل تحرير السكان المستعبدين. إن فرنسا طلبت من أبنائها المقدامين نشر إشعاعها فيما وراء البحار وبكل شجاعة وحماس وإصرار نفذوا ذلك فأصلحت الأراضي وحوربت الأمراض ونفذت سياسة تنموية حقيقية والآن يقال لنا إنهم أشرار. كنت أفضل بدلا من ذلك أن تتم إدانة الإرهاب الذي تعرضت له القوات الغازية والمتعاونون معها من السكان المحليين.

انطلقت صيحات الاستهجان من أركان القاعة، وتدخل كريستيان طالبا الهدوء ثم أعلن رفع الجلسة لتناول طعام الغداء.

وقفت وأنا أتطلع ناحية سيلين، واتجهت نحوها بينما كانت تخطو في اتجاهي.غادرنا القاعة وجلسنا في مقهي في الساحة الصغيرة المقابلة للجامعة. شربت كوبا من البيرة الحمراء. وشربت هي كأسا من النبيذ الأبيض. ثم تناولنا طعاما من اللحم والخضروات.

18

عند عودتنا إلي القاعة وجدنا الحاضرين مجتمعين حول مجموعة من الفلسطينيين وصلوا لتوهم من رام الله. كانوا يتحدثون عن المصاعب التي تعرضوا لها في سبيل المجيء. وكانوا ثلاثة بينهم فتاة فرنسية نحيلة وشقراء تضع حول عنقها الكوفية الفلسطينية. قالت إنها تعد دكتوراه عن الحضارة اليونانية، وكانت متعلقة بذراع شاب فلسطيني تنبعث من ملابسه رائحة عرق زاعقة ومن فمه رائحة الكحول. وكان هناك شاب فلسطيني آخر عقد شعره خلف رأسه علي شكل ذيل حصان.

صعدت إلي المنصة برفقة الشابين الفلسطينيين. بدأت كلمتي بالترحيب بالفلسطينيين.وعزيتهم في وفاة ياسر عرفات العام الماضي. وقلت إن وجودهم دفعني إلي تغيير مداخلتي الأصلية. فهم يذكروننا بلون من أبشع ألوان الاستعمار وهو الاستعمار الاستيطاني الذي عرفته بلدان كثيرة من أول الولايات المتحدة إلي الجزائر وفلسطين. وعرضت بإيجاز لتاريخ هذا اللون من ألوان الاستعمار ولتجلياته المختلفة.

ثم قلت:إن الفلسطينيين يقدمون اليوم نموذجا حيا من المقاومة في قتال غير متكافئ وهم لذلك يلجأون إلي أكثر وسائل المقاومة تضحية وأقصد بذلك عمليات الاستشهاد.

سرت همهمة في القاعة قطعها كريستيان بأن أعطي الكلمة للشاب الفلسطيني صاحب ذيل الحصان. قال إنه ولد عام 73، وقادم من جامعة سولت ليك بالولايات المتحدة حيث يعد دكتوراه في اللغتين العربية والعبرية والأدب المقارن. وقال إنه عضو في اتحاد الكتاب الفلسطيني بالقدس وجمعية أساتذة اللغة العبرية وثقافتها في مدينة سولت ليك.

بدأ الحديث مستشهدا بكلمة للشاعر الفلسطيني محمود درويش بعنوان: "ارحمونا من هذا الحب القاتل". خطر ببالي وهو يتحدث أنه يعنيني فأنصت بانتباه. استرسل في حديث طويل ملتو لم أفهم منه شيئا.

انتقلت الكلمة إلي الفلسطيني الآخر. قال: إنه يعيش في رام الله وولد عام 69 ودرس الأدب الإنجليزي ويعمل بمكتبة جامعة بيرزيت.

تحدث عن هبة الضواحي الفرنسية وأثرها علي الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي. وقال إن صحيفة هاآرتس نشرت مقالا للفيلسوف الإسرائيلي الجديد واليساري السابق الين فنكلكروت عرض فيه نظرية حول عنف الضواحي. فهو يري أن المنتفضين لا ينتفضون لأنهم مضطهدون أو مهمشون بل لأنهم مسلمون وسود ولأنهم يعادون الغرب والحضارة المسيحية واليهودية. ولهذا فمن الأفضل ترحيلهم. وقال: إن ذلك ينطبق بالمثل علي الفلسطينيين تحت الاحتلال والعراقيين أيضا.

وقال الشاب: لقد شعر الفلسطينيون بالتماهي مع المنتفضين وتعاطفوا مع حركتهم واعتبروها تعبيرًا عن محنة العالم الثالث.

ساد القاعة وجوم ثم ارتفعت الأيدي تطلب الكلام. وأعطي كريستيان الكلمة لفتاة تبينت من لهجتها أنها مغربية. قالت بصوت منفعل من التأثر إنها تدين الاستشهاد لأنها تقدس الحياة والتمسك بالشرعية الدولية وضد قتل المدنيين.

وتحدث شابان آخران في نفس الاتجاه. وجاء دوري في الرد.

قلت إن من حق الفلسطينيين أن يختاروا مايشاءون من وسائل المقاومة وقبل أن نناقش ذلك نناقش أولا سياسة الإبادة التي تدفعهم إلي ذلك.

ثم أضفت: أنا شخصيا لست متحمسا للاستشهاد كوسيلة من وسائل المقاومة. فالمعركة بين قوي الخير والشر طويلة الأمد ولا يصح أن نخسر مقاتلا في فعل متعجل بدلا من الكفاح ذي النفس الطويل.

ارتفعت أيد كثيرة طالبة التعليق لكن كريستيان أمسك العصا من المنتصف حاسما النقاش. قال لا أحد ينكر ما يتعرض له الفلسطينيون من أذي لكن يجب شجب العنف الواقع علي المدنيين.

19

غادرت الجامعة برفقة سيلين. وتوقفنا أمامها لتدخن سيجارة ثم مضينا سيرا علي الأقدام حتي شارع أرجو، متجهين إلي الفندق. كنا نسير علي الرصيف الأيمن الذي تظلله أشجار كستناء كثيفة، وتتراص به مقاعد خشبية مثبتة إلي الأرض، عهدنا مثلها في القاهرة في زمان مضي.

قالت: أشعر أن في المؤتمر قدرا من التحامل علي فرنسا والغرب عموما.

قلت متفذلكا: هذا الشارع الجميل المنسق الذي يمتع النظر هو أحد ثمارالتراكم المادي والحضاري، الذي قام في جانب كبير منه علي النهب الخارجي من المكسيك إلي الصين مرورا بوسط أفريقيا وشمالها. لهذا لن تجدي مثله في القاهرة.

قالت: وأنتم ؟ ألستم مسئولون عما آلت إليه أموركم ؟.

قلت: نحن نتحمل طبعا جانبا من المسئولية. فالتخلف يتزايد بمعدلات رياضية. لكن لا يمكن تجاهل مسئولية الغرب أيضا. خذي مثلا نزيف الدم في أفريقيا. كانت أراضي القارة في الماضي مقسمة بشكل طبيعي بين قبائلها المختلفة ثم اصطنعت الدول الاستعمارية حدودا جديدة تعمدت أن تؤدي إلي تقسيم القبائل بين عدة دول، مما ولد مسلسلا لا ينتهي من النزاعات تستفيد منه هذه الدول الاستعمارية حتي الآن.

– كنت أظن ان الاستعمار انتهي واستقلت المستعمرات.

– لكن بقيت التبعية ممثلة في المصالح الاقتصادية والقواعد العسكرية.

أضفت بعد قليل وأنا أتجنب قطعة ممتلئة من إفراز كلب: ولماذا نذهب بعيدا؟ كل ما نعانيه من مشاكل في العالم العربي سببه أننا لم نتمكن من إقامة صناعة وطنية متطورة. في البداية جردنا العثمانيون من الموارد البشرية والمادية التي تصنع التراكم الضروري للانتقال إلي عصر الآلة، وجاء بعدهم الفرنسيون والإنجليز. كل محاولة بذلناها كان الغرب يجهضها علي الفور. وهذا ما حدث لآخر محاولة تمت في عهد جمال عبد الناصر وقامت علي تصنيع البلاد. فقد أجهضها العدوان في 1967 وتطلب

الأمر حربا أخري بعد ست سنوات ونتج عن كل ذلك مشاكل جديدة ما زلنا نتخبط في تعقيداتها.

بدت علي وجهها علامات عدم الاقتناع فانطلقت في حماس: لماذا التصنيع الوطني ضرورة؟ لأنه ببساطة الطريقة الوحيدة لتلبية الاحتياجات المتزايدة للمواطنين ولرفع مستوي معيشتهم وثقافتهم. المستهلك لبضاعة أجنبية يمكنه أن يشتري الكمبيوتر ويستخدمه، لكنه لن يصبح أبدا جزءا عضويا من الحضارة التي أنتجته كما سيتضاعف تخلفه مع الوقت بمتواليات رياضية. وسيصاب بالإحباط وينقلب علي نفسه يدمرها أو يبحث عن خلاص في تراث روحي وديني غامض. والنتيجة ستكون وبالا أيضا علي الغرب نفسه فلن يعود العالم الثالث قادرا علي مزيد من الشراء بل سيصبح مصدرا لتصدير التلوث إلي مراكز الحضارة الغربية ذاتها، وطابورا خامسا داخلها.

توقفت أتأمل لافتة فوق بوابة مبني كبير تحذر من دخول الكلاب والأطفال، بهذا التتابع. انتقلت عيناي إلي ملصقات جدارية تعلن عن رقم تليفون يساعدك في الحصول علي عمل، وآخر قد ينقذك من الإقدام علي الانتحار.

قالت: والحل؟

هززت كتفي ثم قلت: لن يتأتي الحل إلا بإعادة توزيع عادل لمصادر الثروة علي مستوي الدول والطبقات. فالغرب يواجه أيضا أزمة اقتصادية وروحية. وهو يحلها الآن علي حساب العالم الثالث والطبقات الكادحة لديه خاصة العمال الأجانب. وهذا الحل لن يؤدي إلي نتيجة كما أوضحت الأحداث الأخيرة.

انطلقت تضحك، وقالت في سخرية: أنت تريد تغيير العالم.

أجبت: إنه يستحق أن يتغير.

لاحظت أن الجانب الآخر من الشارع يخلو من صفوف السيارات المركونة. كان يتألف من سور حجري مرتفع داكن اللون يخفي ما وراءه.

أوضحت لي أننا أمام سجن سانتيه الشهير.

هتفت: أعرفه.

كان أرسين لوبين أحد أبطال مراهقتي يتردد علي هذا السجن ويهرب منه بسهولة. توقفت أتأمل السجن الكئيب وإذا بصوت غريب يتناهي إلي مسامعي.

هتفت: أم كلثوم.

كان صوت المغنية المصرية الشهيرة يأتينا من جهاز تسجيل وضع علي حافة إحدي نوافذ السجن.

لا بد أنه مصري أو عربي خلف هذه النافذة. فما الذي دعاه إلي ذلك السلوك؟ هل هو نداء استغاثة؟

ولأمر ما تذكرت صديقي الشاعر العماني محمد الحارثي الذي يقيم بالمغرب، وهو يروي لي في لهجة مريرة ما وقع له عندما أراد عبور الحدود المغربية إلي إسبانيا. فرغم أنه يحمل أوراقا كاملة ونقودا كافية، فإن الشرطة الإسبانية احتجزته واعتدت عليه بالضرب ثم أفرجت عنه بعد عدة أيام دون أن تقدم إليه أي تبريرات. واصلنا السير حتي الفندق. صعدنا إلي غرفتينا وبعد ساعة التقينا من جديد في البهو مع بقية شخصيات المؤتمر.

كانت قد ارتدت بلوزة بيج مع بنطلون بيج واسع وسويتر بصلي، وعكصت شعرها فوق رأسها معرية أذنيها. وبدت مكحلة العينين، مشرقة ومقبلة.

قادتنا إميلي إلي مطعم إيطالي. وجاء مجلسي بينها وبين سيلين بينما جلست فريدة أمامي بجوار سيدة ستينية وقور ضئيلة الحجم في رداء أسود هي ماريان سكرتيرة منظمة الكفاح ضد العنصرية. وجاء بعدها الأستاذان الكندي والأفريقي والفلسطينيان مع الفتاة الفرنسية ذات الكوفية.

علي العكس من إميلي انبعثت من سيلين رائحة النظافة و عطر خفيف غامض لا يكاد يلحظ

شربنا نبيذا وأكلت علي مهل معكرونة بالقواقع مستمتعا بوجودها إلي جواري. وأخذت ألتقط خيوط المعكرونة بالشوكة في يدي اليمني، فسألتني:

– هل أنت أشول مثلي؟

أجبت بالنفي.

قالت: كنت آكل مرة في الخليج وقدموا لنا طيورا صغيرة. ولاحظت أن الآكلين يبذلون جهدا كبيرا في استخدام الشوكة والسكين. بينما لم أجد غضاضة في استخدام أصابعي.

فشلت في التقاط قوقعة بالشوكة فقالت: يجب أن تستخدم أصابعك.

قلت: لم أغسل يدي.

قالت: يمكن غسلها في طبق من الماء وأشارت بأصابعها بما يعني مس الماء مسا خفيفا.

كان الحديث يدور بالفرنسية وعندما يستعصي علي الفهم تقوم فريدة بالترجمة. وفي أغلب الأحيان كنت أشرد. شربنا كثيرا من النبيذ وسمعت سيلين تقول إنها أحبت أكل الكشري في القاهرة.

التفتت إلي وسألتني عن عمري.

قلت: فوق الستين.

قالت: لا يبدو ذلك عليك.

تظاهرت بعدم الاهتمام بينما طربت في أعماقي. وأثارت ماريان قضية النسيان وعدم النسيان. وخيل إلي أن عيني سيلين اغرورقتا بالدموع. أشرت إلي فيلم "هيروشيما حبي"القديم، الذي تناول المأساتين: أن ننسي وألا نتمكن من النسيان.

قالت سيلين شيئا فشلت في التقاطه. فنظرت إلي فريدة. احمر وجهها وترجمت محرجة:

– تقول إنها أغلقت جهازها الجنسي من سبع سنوات.

ساد الصمت بعض الوقت، ثم بدأت ماريان تتحدث عن تجاربها في السحر. وطلبَت مزيدا من النبيذ وأصرت أن يشرب كل منا كأسه وهو ينظر في عيني مرافقه. قرعنا كؤسنا.ثم رفعناها إلي أفواهنا. نظرت ماريان في عيني الأستاذ الكندي بينما تعلقت عيناي بعيني سيلين، كانتا لا معتين وقد أضاءت ابتسامتهما وجهها المستطيل.

تبادلنا حديثا ضاحكا، واكتشفنا بسرعة أننا نحب نفس الأشياء، ونقرأ قصص القراصنة والروايات البوليسية. وكررنا قصة الشراب مع العيون. وبدت فريدة ثملة قليلا، وأخذت تضحك في خجل طفولي مصطنع.

لاحظت بعد فترة أن إميلي انصرفت مع الفلسطينيين وتبعهم الأستاذان الكندي والأفريقي. بقيت مع سيلين وماريان وفريدة.

شربنا زجاجة أخرى من النبيذ، ثم غادرنا المطعم، وقررنا أن نتمشى حتى الفندق. وسبقتنا فريدة وماريان بخطوتين وانهمكتا في نقاش. وكنت في أحسن حالاتي.

قلت لسيلين: أنا سعيد لأنني التقيت بك.

قالت بحماس: وأنا أيضا.

مالت علي وقبلتني في خدي وهي تقول: هذا غريب.

قلت: فعلا لأني لم أعهد هذا الشعور من مدة طويلة وكنت أعتقد أني أغلقت هذه الصفحة، والآن أشعر وكأني في السادسة عشرة.

أحاطت وسطي بساعدها.

سألتها عن ابنها وعمره. كانت قد أشارت إليه في المطعم. قالت: إن عنده 25 سنة، ويعمل في دار حضانة. ولا يعيش معها لأنها متزوجة من آخر غير أبيه.

قلت: ظننت في لحظة أن زوجك الأول مات.

قالت: أبدا. لقد تركته عندما بدأت علاقتي بالثاني.

سألتها عن مهنة الزوج.

قالت، وهي تدقق النظر إلي الأرض، طبيب وهو زوج طيب.

قلت: الأمر هكذا دائما.

قالت ماذا تعني؟

قلت: عندما توجز المرأة تعليقها علي زوجها بأنه طيب. فهذا يعني شيئا واحدا.

ضحكت: ما هو؟

– لا أستطيع القول. ربما فيما بعد.

سألتني: وأنت. متزوج؟

– لا. لم تمكني الظروف.

وأضفت وأنا أتطلع في عينيها:ربما لم أجد المرأة المناسبة.

أمسكت بيدها فتركتها في يدي. كانت قبضتها كبيرة. وكنت أتطلع إليها باستمرار فتبتسم.

قلت لها إن يديها جميلتان، فقالت في سخرية خفيفة: أنت لم تر قدمي.

قلت: فتشيزم (1)

قالت:لا. هي صيغة في الكلام تسخر من المجاملات.

توقفنا أمام مقهي. ودخلت ماريان مع فريدة لاختيار مكان لنا. وأرادت سيلين أن تشعل سيجارة فأخرجت ولاعتي وأشعلتها ثم قربتها منها.

قربت يدها حتي لمست يدي وفوجئت بها تقبض علي إصبعي الكبير في قبضة يدها ثم تتحسسه من مفصل اليد حتي الظفر في حركة سريعة عدة مرات. ثم ضغطت بأصابعها في حركة موحية. كل هذا وهي تنظر بعيدا عني.

ولجنا المقهي وطلبنا نبيذا بينما شربت ماريان العرق الفرنسي. وقالت إن الطبيب نصحها بشربه.

حاولت أكثر من مرة أن أنظر في عيني سيلين لكنها تجنبتني وتحاشت أي التقاء بين عيوننا.

قالت إميلي بعد فترة إنها متعبة وتريد العودة. فغادرنا المقهي. وتقدمتنا سيلين مع ماريان. ومشينا في صمت إلي الفندق.

استقللنا المصعد وغادرته ماريان وإميلي عند الطابق الثالث وواصلنا الصعود أنا وسيلين.

اقتربت منها وأردت أن أحتويها بين ذراعي فشحب وجهها وابتعدت قائلة شيئا ما فهمت منه كلمة الصبر.

ابتعدت عنها قائلا: أوكيه.

خرجت في الطابق الرابع وواصلت هي حتي الطابق الخامس. مضيت إلي غرفتي. ملأت كأسا من الويسكي ودخنت وأنا أستعرض ما حدث دون أن يتغلب صدها لي علي بهجتي.

كان نومي قلقا تتخلله ذكري قبلتها لي وضمها لخصري واحتوائها لإصبعي في قبضة يدها. وبدت لي هذه الحركة غريبة ومبتذلة.

عصابية أم قسرية؟

تخيلتها تخلع ملابسها وتقول: إن صدرها صغير، فأقول لها إني لست في سوق لحم وإن بوسعي لو شئت أن أشتري بضعة أرطال منه.

20

تناولت إفطاري مبكرا، وجاءت هي في التاسعة إلا الربع. كانت بلا كحل وترتدي بلوزة خوخية مع بنطلون بني واسع وحذاء رياضي.

أطريت لون البلوزة وكيف أنه يتفق مع لون بشرتها فشكرتني في اقتضاب.

سألتها: هل ستبقين في باريس بعد المؤتمر؟

قالت متثائبة: سأعود إلي تولوز يوم الثلاثاء.

قلت: وأنا إلي القاهرة يوم الاثنين. ربما أؤجل سفري يوما.

لم تعلق.

قالت بعد لحظة: سأكون مشغولة يوم الاثنين طول النهار.

لحقت بنا فريدة وقالت: هل سمعتم ما قاله ساركوزي عن المشاغبين؟ وصفهم بأنهم حثالة، وإنه من الأفضل استخدام مبيدات الحشرات ضدهم.

انتظرناها حتي تناولت إفطارها ثم غادرنا الفندق. اعترضتنا مجموعة صاخبة من الطلاب والطالبات ملأت عرض الرصيف. واضطرتنا للسير في طابور. وجدت نفسي خلف سيلين واصطدم فخذي بردفها. وشعرت به قويا صلبا بلا أماكن لينة >

نتابع غدا

هوامش

1 هو أن يكون الرجل عبداً للمرأة فتأمره بفعل أي شيء مثل لعق الحذاء وهناك أيضاً ملابس جلدية سوداء تختص بهذا النوع من الممارسات

كانت تمشي مائلة بكتفها الأيمن وتحرك ساقيها في رشاقة ضاغطة علي مقدمة القدمين رافعة الكعبين قليلا. كانت مشية فيها قليل من الخيلاء. لعلها تعود إلي أيام الصبا.

تجاوزنا الطلاب، وتقدمت إلي جوارها. سألتها: هل درست الباليه؟

قالت: لا. لماذا تسأل؟

قلت:طريقتك في المشي.

-أنا أمارس رياضة تسلق الجبال مع زوجي وأصدقائه.

علي باب الجامعة حيت شابا بسوالف طويلة وعينين كبيرتين وبشرة لزجة. رافقته إلي قاعة المؤتمر. وجلست إلي جواره في أقصي القاعة. وجلست أنا في المنتصف إلي جوار فريدة.

صعدت إلي المنصة فتاة عربية فشلت في تحديد جنسيتها. تحدثت عن الفرانكفونية، بصفتها الآلة الحديثة التي تساعد فرنسا علي الاحتفاظ

بمستعمراتها. وقالت إن المصطلح يعني لغويا ما يتعلق باللغة الفرنسية في كل استخداماتها الجغرافية، ويعني إنسانيا من يتكلم باللغة. و هناك اليوم 204 ملايين نسمة في العالم يتحدثون الفرنسية.

انتقلَتْ إلي موضوع تداخل الحضارات. واستشهدت بكتاب المفكر روجيه باستير الذي يحمل هذا العنوان، والذي يشرح كيف تتم عملية السيطرة والتخطيط وتوجيه الغرس الثقافي إلي إدخال مفاهيم المستعمر الغربي في السياسة والاقتصاد والثقافة.وكيف تتبع العلوم الاجتماعية متطلبات ومصالح الدول الكبري، وكيف يسعي علم الأجناس الاجتماعي حاليا إلي خلق صورة ثقافية جديدة للاستعمار تتجنب أخطاء الماضي التي أدت إلي حركات المطالبة بالتحرير. وقالت إن فرنسا –حسب باستير– تقوم حاليا بعملية الغرس الثقافي المخطط في البلدان التي سبق لها احتلالها في اتجاه فرض التغريب وتبديل القيم والمفاهيم وخلق احتياجات جديدة، وخاصة خلق كوادر جديدة للحكم تخدم مصالحها.

تبعتها سيلين بكلمة عن تجربتها في العمل مع أبناء المهاجرين من المستعمرات السابقة، وذكرت بعض الأمثلة عن الصعوبات التي تعانيها وجلها من جانب السلطات الفرنسية. وقالت إن القانون المقترح لا يساعد في تحقيق الاندماج المطلوب للمهاجرين وأبنائهم في المجتمع.

اقترب مني كريستيان وهمس لي أن أتبعه إلي الخارج.

قال: عندنا الآن تسجيل في الراديو، فهل لديك مانع من المشاركة فيه؟

قلت: لا.

انضم إلينا رفيق وغادرنا الجامعة، وأخذنا كريستيان في سيارته إلي مبني الإذاعة في شارع كنيدي.

جلسنا حول مائدة مستديرة ضمت بالاضافة إلينا كاتبا مصريا مقيما في فرنسا والأستاذين الكندي والأفريقي ومترجمة مصرية.

وجهت إلي فتاة جميلة ذات ملامح نصف آسيوية أسئلة معدة جيدا. كانت شقراء بنصف أعلي ضامر وأسفل ممتلئ بشكل واضح. وكانت ترتدي قميصا أبيض لامعا وبنطلونا ضيقا شبه شفاف.

طلبت مني أن أتحدث عن مساهمتي في المؤتمر، فاستعرضت، الدروس المستفادة من حملة بونابرت وأفضت عن تجربة مصر مع الاستعمار. كما تحدث الأستاذان الكندي والأفريقي عن مضمون كلمتيهما في المؤتمر.

وجهت المحاورة حديثها إلي الكاتب المصري. كان طويل القامة نحيفها وأسمر البشرة بملابس بسيطة. سألته عن سبب التجائه إلي فرنسا. فأعلن أنه أضاع شبابه في الجيش المصري دون ضرورة أو فائدة.

تدخل رفيق غاضبا، وقال إنه يعجب من تسمية الدفاع عن الوطن عملا غير ضروري وبلا فائدة.

رفعت المحاورة أمام الكاميرا كتابا له بالفرنسية، كما تبينت من الغلاف وسألته: الكتاب يتحدث عن تجربة العلاقة الجنسية بين رجل وابنته. فهل يمكن نشره في مصر؟

قال: بالطبع لا، ولهذا غادرت مصر نهائيا. وأنا سعيد بذلك.

قلت لرفيق ونحن نغادر المبني: لا أفهم علاقة الكاتب المصري بموضوع البرنامج.

ضحك وقال: هذه هي الطريقة التي يعملون بها. يسمونها متوازنة.

تعثرت في درج المبني وانفصل نعل حذائي تماما. أكملت السير حتي سيارة كريستيان بقدم حافية.

قال كريستيان: من الصعب أن نجد حانوت أحذية مفتوحا اليوم. سنحاول.

تنقلنا بين عدة شوارع إلي أن عثرنا علي متجر كبير مفتوح. انتقيت أرخص حذاء موجود وكان ثمنه 25 يورو، أي مائتي جنيه مصري. وقلت لرفيق: لم أتصور أن يأتي اليوم الذي أشتري فيه حذاء بهذا المبلغ.

توقفنا لدي مطعم مجاورللوجبات السريعة، وأخذنا ساندويتشات لحم بارد مع بيرة. ودفعت 12 يورو، أي حوالي مائة جنيه مصري.

غادرنا الحانوت ومضينا فوق الرصيف. واكتشفت أني ما زلت أحمل في يدي إيصال المبلغ الذي دفعته. كوّرت الورقة وتطلعت حولي بحثا عن إناء قمامة فلم أجد.

لمحت كريستيان يرمقني في ترقب. وفكرت أنه يتوقع مني أن ألقي بالورقة علي الأرض كما يفعل الناس في مصر. ارتبكت وبدلا من أن أضعها في جيبي – كما قررت – ألقيت بها علي الأرض.

وصلنا الجامعة مع بدء الجلسة المسائية. وتحدث فيها مؤرخ فرنسي عجوز.

بدأ كلمته بأن الكاتب الفرنسي الشهير أندريه جيد كتب عن فظائع الاستعمار الفرنسي في أفريقيا الاستوائية، حيث مدت الخطوط الحديدية بتكالفة وفاة لكل "فلنكة" (القضيب المستعرض الذي يثبت قضبان الخطوط الحديدية).

ثم قال: إننا نعترف بجرائم الاستعمار، لكن هناك أيضا جرائم القوميين. فالمكافحون من أجل الحرية كانوا يكافحون من أجل السلطة. واستخدموا في ذلك وسائل لا تختلف أخلاقيا عن تلك التي لجأ إليها المستعمِر.

ضرب مثلا بجبهة التحرير الجزائرية، فقال إنها عندما استولت علي السلطة لم تزد الحرية الثقافية أو الاقتصادية، وإنما ولدت إدارتها الفاسدة للبلاد مزيدا من العنف.

وتساءل في حدة: ماذا يقول الجزائريون لو كانت مناهج التعليم صريحة عن جرائم الجانب القومي كما هي بالنسبة للجانب الفرنسي؟

توقف ثم استطرد في صوت هادئ: في جزيرة جواديلوب الفرنسية في الهند الغربية كانت هناك مظاهرة ضد الاستعمار. لم يحضر إلا القليل، لأن بقية السكان كانوا مشغولين بمشتريات الكريسماس بمعونات مالية من فرنسا بالطبع. ووقف المتظاهرون إلي جانب صورة مؤسية للعبيد السود، واستخدموا مكبرات الصوت في الهجوم علي فرنسا وهي وسيلة لم تكن متوافرة لدي أسلافهم.

استعادت لهجته حدتها: الغريب أن إحدي القضايا التي شغلت سكان جواديلوب هي زيادة سرعة تدفق اللاجئين من هايتي والدومينيكان المستقلتين. يبدو أن الناس تهرب من الحرية، أو علي الأقل الاستقلال إلي ما تبقي من مستعمرات.

حقا إن تاهيتي شهدت أسوأ جرائم الاستعمار. لكن الاستعمار الفرنسي لما استمر مائة سنة بينما استمر الاستقلال مائتين. فهل يمكن القول بأن سكانها ونخبها السياسية لم يساهموا في حاضرها المأساوي ؟ لو قلنا هذا فإننا نهبط بأهالي تاهيتي إلي موقع أقل من الكائنات الإنسانية الكاملة. إن تراثهم الاستعماري مرعب، لكنهم قاموا بكل شيء من أجل أن يجعلوه أسوأ.

وتساءل في سخرية: هل كان الاستعمار الفرنسي حسنا أم سيئا؟ لقد تمتعت فرنسا بأكبر ازدهار في تاريخها مباشرة عقب خسارة مستعمراتها. ويقول مؤرخون محترمون إن الاستعمار كلف فرنسا من النفقات الإدارية والعسكرية أكثر مما تلقته من سلع رخيصة أو عمل رخيص في المقابل. لقد عومل المستعمَرون بصورة سيئة بل رديئة، لكنهم حصلوا علي منافع من قبيل التقدم التقني وفرصة دخول عالم وثقافة أكثر اتساعا مما كان يمكن أن يعرفوه.

توقف ليلتقط أنفاسه ثم استطرد: التواريخ الحديثة للعلم والتكنولوجيا تشير إلي علاقة هامة بين المعرفة العلمية والسيطرة الاستعمارية. وتقول دراسة إن مجرد وجود الفلكيين والجيوفيزيقيين وعلماء الأرصاد الفرنسيين في الجزائر وتونس ومدغشقر (مالاجاش) وأمريكا اللاتينية والصين قد جعلهم سفراء ثقافيين دعموا فكرة السمو الثقافي الفرنسي. وفي بعض الحالات فإن إصرار قوة استعمارية علي احتكار المعرفة العلمية قد شجع العلماء المحليين علي إيجاد تقاليد محلية للابتكارالعلمي.

ودعا المؤرخ العجوز في نهاية كلمته إلي ضرورة ما أسماه "إزالة الإنكار المتبادل بين المستعمَر والمستعمِر".

كان المتحدث التالي مدرسا وعضوا في رابطة مدرسي التاريخ والجغرافيا الفرنسية. قال إنه يعارض القانون لأنه دعوة لكتابة تاريخ رسمي. واستشهد بأستاذ التاريخ فرنسوا دوبار الذي شبه الأمر بمطالبة مدرسي العلوم الرياضية بتدريس 2+2= 5.

وقفت فتاة رشيقة وقالت إن الحديث عن الازدهار الفرنسي بعد استقلال المستعمرات تجاهل المدلول الحقيقي لهذه الظاهرة، فقد كان هذا الازدهار نتيجة التراكم الذي حققته المستعمرات لفرنسا. رفع شاب يده وقال: أحب أن أستشهد بالمؤرخ مارك فيرو مؤلف التاريخ الأسود للكولونيالية. فقد ذكر أن فرنسا أصرت دائما علي وصف ممارساتها الكولونيالية بالإنسانية بينما تصف البريطانية والإسبانية بالوحشية. وقال إن الممارسة الفرنسية كانت أكثر قمعا لأنها أرادت أن يصبح مواطنو المستعمرات فرنسيين وهو ما لم تفكر فيه بريطانيا.

تولي المؤرخ العجوز الرد. قال إنه كان يقرأ بالأمس كتابا للمؤرخ نيال فيرجسون أستاذ هارفارد وصف فيه الحكم الاستعماري البريطاني في أفريقيا وآسيا بأنه "بناء للأمة"–لأن الإمبراطورية الإنجليزية نجحت في تحويل المؤسسات الفاشلة أو الشريرة ووضع أسس حكم القانون والإدارة غير الفاسدة والحكومة التمثيلية. وتساءل: ألا ينطبق هذا الكلام أكثر علي الإمبراطورية الفرنسية؟

وقف أحد الحاضرين منفعلا، وقدم نفسه علي أنه أستاذ للتاريخ في معهد الدراسات السياسية في باريس. قال: إني أتعجب من الاستشهاد بهذا المؤرخ الأمريكي الذي يتحدث بلغة القرن التاسع عشر. فهو يدعو الرسميين الأمريكيين في كتبه الأخيرة وخاصة "صعود وسقوط الإمبراطورية الأمريكية" (1) لأن يقوموا بدورهم باعتبارهم

السادة الكولونياليين الجدد وورثة الإمبراطورية البريطانية. وبلغ به العهر أن زعم وجود جين إمبريالي ذي أصل أنجلو سكسوني.

عند هذه النغمة الحادة انتهت الجلسة المسائية. وعدنا إلي الفندق. وأمام مدخله التفتت سيلين لي وقالت: سأصعد إلي غرفتي لآخذ «دوش». نلتقي بعد ساعة.

تريدني أن أتخيلها عارية تحت الماء، أم لتؤكد أنها جاهزة لأي تطور جسدي أم لتلغي الفكرة التي تعرفها لدينا عن علاقة الفرنسيين بالماء، ولأنها تعرف هوسنا بالنظافة الجسدية؟

في الموعد ظهرت في بزة سوداء كاملة فوق بلوزة كحلية بمربعات بيضاء صغيرة. وانضمت إلينا فريدة وماريان وبقية المشاركين. ومضينا سيرا علي الأقدام إلي مطعم فيتنامي كان صاحبه عضوا في جبهة التحرير الفيتنامية. وحفت جدران المطعم بصور له مع مشاهير الزائرين.

استمتعنا بالأكل الفيتنامي، وخاصة حساء المكرونة. ثم عدنا إلي الفندق واتجهنا أنا وسيلين وفريدة إلي البار وجلسنا نشرب «ويسكي» ونضحك.

وصفت فريدة زوج ماريان بأنه يشبه في جماله تمثال دافيد لمايكل أنجلو. وقالت: ليتني قابلته قبل زوجي المسكين.

سخرنا منها فقالت: ماريان تغير عليه بشدة. قلت لها اليوم إنه لا يحب الحساء الفيتنامي فغضبت وتساءلت: كيف أعرف عنه شيئا تجهله هي؟

سألتني سيلين: هل قررت ماذا ستفعل صباح الاثنين؟

قلت: كنت أتمني أن نقضيه معا.

تجاهلت إجابتي وقالت: يمكنك أن تقوم بجولة حول باريس في قارب نهري فتشاهد كنيسة نوتردام والمسلة المصرية في ميدان الكونكورد. يمكنك أيضا أن تذهب إلي متحف اللوفر لتري الأهرامات الزجاجية. وبالليل تتفرج علي برج إيفل عندما تضاء نجومه.

قلت لها متظاهرا بالضجر: وماذا أيضا؟

جرعت ما تبقي في كأسها مرة واحدة ثم مضت تقول: أو تذهب إلي هضبة مونمارتر حيث يمكن أن تري باريس بأكملها تحت عينيك. لا تحب ؟

هززت رأسي.

قالت:أو تذهب إلي شارع الشانزليزيه الذي يضم أفخر الفنادق والمطاعم وحوانيت الملابس والعطور. ستجد مواطنيك من العرب الخليجيين في كل مكان.

نظرت إليها فريدة مستغربة لهجتها العصبية.

قلت لها: يبدو أنك متعبة وفي حاجة إلي الراحة.

نظرت إلي طويلا ثم هبت واقفة: فعلا.

انصرفت وتبعناها بعد قليل.

في فراشي فكرت في متعة التجرد من كل الملابس الداخلية والانكماش في أحضانها باستسلام الطفل. ولاحظت أني لم أعرف هذا الشعور من قبل.

تثاءب أغلب المشاركين في الجلسة الصباحية لليوم الثالث والأخير. ويبدو أن ليلة الأحد أرهقتهم. وبدأنا متأخرين بنصف ساعة. وكنت قد جئت بمفردي لأن سيلين وفريدة لم يظهرا في المطعم حتي الساعة التاسعة.

كان رفيق مقطبا وقال إن الوضع الأمني صعب وحرج ولا تبدو نهاية لأحداث الشغب التي تقع كل ليلة، فبالأمس أُحرقت 473 سيارة في تولوز وليون وأميان.

وبسط صحيفة الصباح قائلا: تصريحات ساركوزي لا تساعد علي التهدئة فهو مرة يتحدث عن وجود مؤامرة ومرة أخري يدافع عن قانون رد الاعتبار للاستعمار. وقرأ لي تصريحا له يقول فيه "إذا كان لفرنسا دين أخلاقي فهو نحو الفرنسيين العائدين من الجزائر". وقال أيضا: "الاستعمار ليس مسئولا عن كل المصاعب التي تواجهها أفريقيا حاليا من الحروب وجرائم الإبادة والفساد. والوجود الفرنسي في مصر والجزائر والمغرب لم يكن بدوافع استعمارية بل كان حلما حضاريا".

بدأت المداخلة الأولي دون أن تظهر سيلين أو فريدة. وكانت لباحث مغربي. استرخيت في مقعدي متوقعا حديثا مملا مكررا. لكنه فجر قنبلة من الوزن الثقيل.

قال: العرب مدعوون أكثر من الفرنسيين لإعادة النظر في تاريخهم الاستعماري والاعتراف بأخطائهم وما ارتكبوه من جرائم إبادة بشرية وثقافية وهوية في حق شعوب شمال أفريقيا. الاستعمار الفرنسي نعيم بالمقارنة بجحيم الاستعمار العربي ومخلفاته الكارثية. فللاستعمار الفرنسي جانب وضاء يتمثل في إقامة مؤسسات عصرية ينظمها القانون وإنشاء المدارس والمستشفيات وإدخال التكنولوجيا والحداثة ووسائل المواصلات الجديدة.

ساد صمت مطبق و أدركت أنه لا بد أن يكون أمازيغيا من قومية البربر المغربية.

استطرد: التاريخ الاستعماري العربي لشمال أفريقيا خضع للتشويه والتزوير والتحريف إذ صور علي أنه تاريخ بطولات وأمجاد وخير مطلق. وأن العرب هم ملائكة الأرض الذين كلفوا بتحرير الشعوب الأخري ليس من أجل ثرواتها ونسائها بل إحسانا إليها وغيرة عليها لأنهم أخرجوها من ظلمات الكفر إلي نور الإيمان. لقد جرت إبادة بشرية ولغوية وثقافية وهوياتية تحت غطاء الإسلام.

بدا اليوم كأنه ثورة مضادة علي اليومين السابقين. فقد تبع الأمازيغي أستاذ فرنسي في جامعة مونبيلييه تحدث عن حرب استقلال الجزائر التي استمرت ثماني سنوات وقال: إنها أول معركة يلقن فيها المجاهدون المسلمون أحد الجيوش الغربية الكبيرة هزيمة قاسية. فقد استسلم ديجول في 1962بلا شروط هنا ضاع جميع أرصدة البترول الفرنسية في الصحراء وهرب إلي فرنسا مليون من المستوطنين الذين عاش بعضهم في الجزائر ثلاثة أجيال ومات أيضا مليون قتيل مسلم فقد أغلبهم حياته علي أيدي مواطنيهم.

احتدت لهجته فجأة وهو يستطرد: بعد أقل من عشرين سنة نشبت ثورة جديدة في 1980 يقودها هذه المرة الإسلاميون، وقتل من المدنيين أكثر مما قتل في الحرب ضد فرنسا. قطعت رؤوس ووضعت فوق علامات الطرق وأعدم صحفيون ورجال أعمال وراهبات وألقي ماء النار علي وجوه الطالبات الرافضات للحجاب. وذبحت قري بكاملها علي يد مسلحين مجهولين. وفي نهاية 2001 تراوح عدد من مات في الحرب الأهلية بين 100،000 و 150،000جزائري.

كل ما حدث في الجزائر في الخمسين سنة الماضية يدل علي عجز الإسلام عن مواجهة تحديات العالم الحديث مما يؤدي به إلي مهاجمة الغرب الناجم.

سأل أحد الشبان: هل هناك أمل في أن تتوقف أعمال العنف بالجزائر؟

أجاب أستاذ مونبيلييه قائلا: إذا كان هناك أمل فهو أن الأمريكيين قد وضعوا قدما في الجزائر لمساعدة نظام بوتفليقة علي مواجهة الإرهاب. ويبدو أنه حدث تراجع ملحوظ في مستوي الفظائع خلال السنوات الثلاث الماضية. فهل يعتبر هذا نجاحا لبوش في حربه ضد الإرهاب أم أن قتلة الجزائر قد انتقلوا إلي العراق؟ علق رفيق علي الفور مستنكرا المشابهة بين العراق والجزائر.وقال إن التدمير الذي حدث للجزائر علي يد الاستعمار هو المسئول عن الردة الدينية. وليست للأمر علاقة بالعراق الذي تعرض لغزوأمريكي. وما يجري به من عنف ليس إرهابا وإنما مقاومة.

تدخلت قائلا: أنا لا أنكر التاريخ الاستعماري للعرب.وليس من الضروري أن يتبع ذلك التخفيف من إدراكنا للاستعمار الفرنسي. إننا نطالب الضمير الفرنسي ممثلا في الجمعية الوطنية باستنكار العهد الاستعماري وليس بوسعنا أن نفعل هذا بالنسبة للعرب. فمن نطالب الآن ؟ مصر التي لم تستعمر أحدا في تاريخها بل كانت دائما ضحية للاستعمار؟ نفس الأمر ينطبق علي ليبيا وبلاد الشمال الأفريقي بل والمشرق أيضا.

علق أحد الطلاب الأمازيغيين، فيما يبدو، فدعا إلي تدريس اللغة الأمازيغية واعتبارها لغة رسمية وإقرار الهوية الأمازيغية في الدستور المغربي.

تبعته ماريان قائلة: أنا لا أطالب بالتعويض عن أعمال النهب أو عن حصد أرواح سدس الشعب الجزائري خلال الخمس والعشرين سنة الأولي من الغزو.وفي نفس الوقت لا أري مبررا لإغفال دور المعلمين الفرنسيين التنويري.

توليت رئاسة الجلسة الأخيرة وجلست بجوار كريستيان وعيناي علي مدخل القاعة مترقبا وصول سيلين ثم انضمت إلينا جابريلا قادر أستاذ تاريخ الفن بجامعة السوربون، السمراء ذات الشعر المنكوش التي استمعت إليها في بواتييه. تبعتها فتاة فرنسية حاملة جهاز الشرائح الضوئية والشاشة فنصبتهما إلي يمين المنصة.

تصورت البروفيسورة الجزائرية وهي تحمل حقيبة من الصور الضوئية للوحات مختلف الرسامين وتلف علي المؤتمرات لتقدم ما يناسب كل واحد منها.

تصفحت الوجوه واكتشفت أن ربيع غير موجود وأني لم أره البارحة أيضا.

هل أنجز مهمته في اقتيادي إلي المقهي؟

وقعت عيناي في الصف الأول علي ساقين متناسقتين مخروطتين وبداية فخذين مشدودين تحت ثوب أسود قصير يغطي صاحبته من الرقبة. كانت نحيفة متوسطة الطول بشعر أسود طويل منسدل علي كتفيها وعينين زرقاوين ضيقتين وشفاه ممتلئة – السفلي متهدلة قليلا – غطتها حمرة الروج القانية. وجلس إلي جوارها عجوز أنيق في بزة كاملة بشعر أبيض غزير و ووجه مليء بالغضون والتجاعيد. قدرت عمرها بأواسط الأربعينيات وفكرت أنها ابنته أو سكرتيرته.

رأيتها توجه ساقيها المضمومتين جهة اليسار نحو رفيقها وفي اتجاه أستاذة الفن. ولاحظت أنها تحدق إلي جابريلا بطريقة تسمح لها أن تشعر بنظرات الآخرين من طرفي عينيها. ولم تنظر ناحيتي علي الإطلاق.

وضعت الفتاة لوحة استشراقية في جهاز الشرائح الضوئية. ودخلت جابريلا في موضوعها مباشرة دون مقدمات. أشارت إلي اللوحة المعروضة قائلة: عرض يوجين

ديلاكروا (1) هذه اللوحة المسماة "نساء جزائريات في مسكنهن" في صالون باريس سنة 1934.

التفت برأسي أتأمل اللوحة..ضمت ثلاث نساء مسترخيات في ملابس شرقية. إحداهن في وضع حسي وثانية برداء مفتوح الصدر متربعة ويدها علي ساقها العارية وتجلس ملتصقة بامرأة أخري عارية الساقين والقدمين بينما تقف في الخلف جارية زنجية.

<<<

لاحظت أن رفيقة العجوز الأنيق حولت ساقيها بحيث صارتا عموديتين أمامها وفي مواجهة كريستيان.استمتعت بمنظرهما وتكور ركبتيها وراودني هاجس بما هو قادم.

قالت البروفيسورة الجزائرية/الفرنسية: بعدقرابة القرن ونصف القرن وفي 1982 ناقشت الفنانة الجزائرية حورية نياتي(2) رؤية ديلاكروا للمرأة الجزائرية في عمل مركب من خمس لوحات يحمل اسم " لا للتعذيب" عرض لأول مرة عام 1990. ويضم العمل المركب تسجيلات لأغان جزائرية من غنائها وشعرا كتبته بالفرنسية.

وضعت المساعدة شريحة ضوئية جديدة. واستطردت جابريلا: أعادت نياتي صياغة رؤية ديلاكروا بمفردات حداثية. نحن أمام ثلاث نساء كما في لوحة ديلاكروا وفي نفس الوضع المسترخي الحسي الذي صوره لكن بعد إلغاء تفاصيل الوجوه وحذف الأطراف.

خلصت نياتي رسمها من عالم الحريم (الملابس والحلي) والتصورات الاستشراقية التقليدية ووضعت الأجساد في فضاء مجرد محدد بلمسات من الأحمر القرمزي والأزرق.

وبذلك صورت الجسد المعذب للمرأة الجزائرية في أثناء حرب الاستقلال. و قوضت الرؤي الغربية السلطوية الموجودة في تصور ديلا كروا.

>>>

لحظت وقلبي يدق أن الركبتين تحولتا قليلا في اتجاهي وإن ظلت نظرات صاحبتهما مثبتة علي اللوحة المعروضة. ورأيتها تميل بخدها نحو رفيقها وتدعكه بخده في رقة ثم تضع يدها اليسري في يده. امرأته إذن وهما مشتركان في ما سيحدث. لكنه يغالب النعاس فهل تداري إحساسا بالذنب لما ستفعله؟

مضت جابريلا قائلة: لقد تجسد جسد المرأة الجزائرية أثناء الحرب بين الجزائر وفرنسا كموقع للتعارض بين الخطاب الاستعماري الفرنسي والخطاب الوطني الجزائري. فالمرأة الجزائرية المحجبة – رمز الأمة –تجسد الفضاء المقدس والمنزلي الذي وجب حمايته وانتزاعه من السيطرة الكولونيالية.

لكن هناك تحالف حميم بين الحداثة والكولونيالية إذ اعتبرت الحكومة الكولونيالية الفرنسية إزالة الحجاب خطوة تقدمية نحو شكل أكثر أوروبية من التحديث. ذلك أن أحد العناصر المركزية للتبرير الإيديولوجي للثقافة الكولونيالية هو نقد العادات الثقافية والدينية للمجتمعات الشرقية وإبرازها علي أنها تضطهد المرأة.

أغلق العجوز عينيه واستغرق في النوم محتفظا بيدها في يده. ثم حدث ما توقعته. انفرجت ساقاها قليلا ثم اتسع الانفراج بالتدريج ودققت النظر لأتبين معالم الفوهة السوداء التي تجلت لي. كيلوت أسود أم شعر عانة أسود؟ ثم بدأت تهز ساقيها برفق

كأنها تدعكهما الواحدة في الآخري. وهي لا تزال تحدق بعيدا عني بالطريقة ذاتها التي تسمح لها برؤيتي علي حافة البصر.

انتبهت إلي حديث جابريلا. ووجدت أنها تتحدث عن لوحة أخري من اللوحات الخمس للعمل المركب تصور امرأة راقدة في إغراء علي جانبها وقد استند نصفها الأعلي لمرفق بينما اختفت يدها الأخري تحت انحناءة الفخذ. لكن هذا الوضع الإيروتيكي يفقد جنسانيته عندما نري قدمي المرأة مقيدتين ووجهها بلا ملامح.

ختمت حديثها قائلة: عندما قامت الفنانة الجزائرية باجتثاث الوجه والأعضاء فإنها تخطت التجريد الحداثي بأن أعطته موضوعية بصرية وتاريخية. لقد غيرت صورة الحريم في القرنين 19 و20 وتحولت المرأة الجزائرية من كونها رمزا للحريم وكل بضاعته الجنسية والتقاليدية القمعية والسلبية وأصبحت رمزا لشيء آخر هو التعذيب الكولونيالي.

توقفت برهة ثم استطردت: إن نساء الجزائر كن يحاربن ويمتن وكن يعذبن. أما نساء ديلاكروا فكن أنصاف عرايا في رسوم لم تصور المعاناة والعذاب والقمع والتعاسة بل عبرت عن الموات والسلبية.

انتهت كلمة جابريلا. ورأيت المرأة تميل علي أذن رفيقها العجوز وتهمس له فقام واقفا وتبعته إلي خارج القاعة دون أن ينتظرا المداخلة التالية.

هل كان الرجل عليما بالموقف وهذا جزء من جنسانيته الغاربة وعند العودة سيخدمها بفمه أو يشاهدها تستمني أم ستضعه في فراشه ثم تستلقي عارية أمام مرآة وتستعيد ما حدث مستخدمة يديها أو جهازا من الذهب؟ هل هي صائدة ثروة أوقعته في شباكها وتنتظر موته لتنعم بها. تقضي الوقت كله في الشمس والنوادي والسفر ؟

أم ارتبطت به بشكل مرضي منذ سنوات واجدة فيه الأب وما زالت في هذا الارتباط وبالتالي أوجدت مسارب لطاقتها الجنسية؟

وقفت عجوز بعوينات طبية منزلقة علي أرنبة أنفها وقالت إنها تريد التعليق علي محاضرة جابريلا قادر.

قلت لها إننا سنستمع إليها بعد أن تنتهي كلمات المشاركين. ردت في حدة: أنا أريد أن أقول لها كلمة واحدة. فلولا الاستعمار ما كانت الرسامة تعلمت الفن ولا كانت البروفيسورة قد أتيح لها أن تتحدث إلينا.

كانت الكلمة التالية لمؤرخ شاب بعنوان " مواقع الذاكرة الكلونيالية". قال إن السلطات الفرنسية سعت خلال العصر الكولونيالي إلي غرس الفكرة الاستعمارية في البلاد وإثارة الحماس للمشروع الإمبريالي. ففي الأقاليم وباريس أطلقت علي الشوارع أسماء رموز الاستعمار من مستكشفين وقادة عسكريين وبعثات تبشيرية. وهناك تماثيل نصفية لهؤلاء الناس مثل الجنرال جاليني خارج الإنفاليد وداخله قبر الماريشال ليونيتي الذي قاتل في الهند الصينية ومالاجاش وصار حاكما للمغرب. وفي جبانة مونمارتر قبر الرسام المستشرق جوستاف جويوميت مزينا بتمثال لفتاة جزائرية. هناك أيضا نصب تذكاري لحملة مارشان في السودان وإن كان قد نسف في السبعينيات.

وفي غابة فنسان يوجد مبني ضخم شيد من أجل معرض 1931 باسم المتحف الدائم للمستعمرات. يقدم الاستعمار والحرب كمصدرين للفخر والمجد القومي. ومن الخارج تزينه صورة للعالم تصور الفوائد التي عادت علي فرنسا من المستعمرات مثل

المنتجات الزراعية والمطاط والخشب والأرز، وفي الداخل جداريات تصور ما قدمته فرنسا للمستعمرات: العدالة والطب والعلم.

ارتفعت يد معترضة وقال صاحبها: ليس هناك متحف بهذا الاسم.

ابتسم المتحدث وقال: لقد أعيدت تسمية المتحف باسم "متحف فرنسا وراء البحار"وفي السبعينات أغلقت كثير من قاعاته في محاولة لإخفاء الماضي الاستعماري. لكن يجري الآن في مارسيليا بناء متحف "النصب القومي لوراء البحار" وهو يؤدي نفس المهمة.

توقف ثم أضاف: يجب ألا ننسي أيضا أن الرئيس شيراك كرس نصبا للجنود الذين قتلوا في الحرب الجزائرية.

عقب علي حديثه رجل خمسيني محمر الوجنتين: في الحقيقة هناك ذاكرتان متنافستان. فقد أطلق اسم موريس أودين علي أحد الميادين في باريس وهو عالم رياضي في الجزائر عارض الحرب وقبض البوليس عليه وعذبه ثم قتله. هناك في فرنسا تاريخ لمعاداة الاستعمار أيضا نراه في مواقع.مثل لوحة علي شاطئ السين وأخري في محطة مترو تحيي ذكري الذين قتلوا أثناء المظاهرات ضد الحرب في الجزائر.

علق كريستيان قائلا إنها ملاحظة جيدة وهامة ففرنسا دائما لم تكن فرنسا واحدة. ولها تاريخ طويل من النضال من أجل الحرية والمساواة.

وقف أحد الطلاب وقال أحب أن أستشهد بقول الأستاذ Thierry le Bars أستاذ القانون في جامعة Caen: " لم يكن الاستعمار الفرنسي إيجابيا علي الإطلاق. فكروا في الوضع

القانوني المحط للمسلمين في الجزائر، في مذبحة خمسة آلاف جزائري في سيتيف عام 1945، في جميع التعساء الذين تحملوا جحيم الرق ليحققوا ازدهار جزر الكاريبي".

وعقبت ماريان قائلة:إن القانون المقترح إهانة للذكاء وإنكار للديموقراطية ورفض للواقع التاريخي وفرملة للحرية الأكاديمية. وفوق كل شيء يعرب عن "السخط علي الضحايا".

قرأ كريستيان برقية موجهة إلي المؤتمر من جون مارك ايرو رئيس الكتلة الاشتراكية بالبرلمان قال فيها:المادة محل الجدل خطأ سياسي وعبث تعليمي. وهي لا تساعد بلدنا علي انتقاد تاريخها بوعي. إنها تجمل صورة العهد الاستعماري القديم وتتجاهل أعمال العنف والنهب. لا يحق للمشرع أن يكتب هو التاريخ.

ثم قرأ البيان الذي وجهه أكثر من ألف مؤرخ وكاتب ومثقف طالبين إلغاء القانون الذي يدعو مدرسي التاريخ لتأكيد المظاهر الإيجابية للاستعمار الفرنسي.

وجاء في البيان: يفرض القانون أكذوبة رسمية علي المذابح التي وصلت إلي حد الإبادة العنصرية وعلي تجارة الرق وعلي العنصرية التي ورثتها فرنسا..... والمعروف أن القانون ينتوي رد الاعتبار لـ 200 ألف جزائري حاربوا مع القوات الاستعمارية الفرنسية.

ثم أضيفت مادة جديدة إلي القانون تطالب المناهج الدراسية بأن تعترف بالدور الإيجابي للوجود الفرنسي فيما وراء البحار وخاصة شمال أفريقيا.

وقال البيان: إن فرض نسخة رسمية للتاريخ تمثل اعتداء علي الحياد التعليمي. لكن المعارضة الرئيسية للقانون تتمثل في أن الامبراطورية الفرنسية كأغلب أشكال الكولونيالية قد سببت آلاما ومعاناة بالغة.

23

اصطف الحاضرون ليمهروا بتوقيعاتهم بيان المدرسين ثم غادرت المبني إلي الفندق تحت المطر. توجهت إلي مكتب الاستقبال فعرفت أن سيلين ليست في غرفتها.

صعدت إلي غرفتي وأخذت دوشا. ثم نزلت إلي البهو من جديد وتأكدت أنها ما زالت غائبة.

جلست في أحد المقاعد ثم قمت وتجولت في أنحاء البهو وعيناي تتنقلان بين مدخل الفندق وباب المصعد. وأخيرا ظهرت قادمة من ناحية البار في ملابس بيضاء تحت سويتر صوفي.

قلت لها: افتقدتك وكنت أفكر فيك طول الوقت. أدارت وجهها نحوي باسمة بعينين مكحلتين غامضتين. احتضنتها وقبلتها في خدها فأحنت رأسها وقبلتني في جانب فمي. وشممت رائحة خمر قوية.

أمسكت بيدها فخلصتها في رفق قائلة: لا تلمسني كثيرا.

أبديت دهشتي فأضافت: هذا يزعجني.

داريت كسوفي قائلا: أنا من شعب بدائي يتعامل بالحواس.

كررت: أنا أنفر من اللمس.

أشعلَت سيجارة وجذبت أنفاسها في عمق ثم تطلعت في ساعتها وسألتني: تحب أن تري جانبا من النشاط الذي أقوم به؟

قلت في حماس: جدا.

قالت إنها تسجل مع مجموعة من الشباب شريطا صوتيا لاستخدامه في الدعاية للمؤسسة التي تديرها.

اتجهنا إلي الخارج. قلت لها: هل يمكن تقبيلك أو احتضانك دون لمس؟

أشارت بيدها إلي رأسها وقالت: ذهنيا.

أخذنا تاكسي إلي مبني قديم في ميدان فوش. ووقفنا أمام الباب لتدخن سيجارة جديدة ثم ولجنا قاعة تسجيل صغيرة بها مقاعد قليلة تجمع بها عدد من الشبان.

قدمتني إلي رسامة ألبانية نحيفة وجزائري يدرس الفلسفة، ومصري متخرج من معهد السينما، وطالب أدب فيتنامي وسنغالية طويلة ممتلئة ذات شعر أكرت ولبناني لا يتكلم العربية وفتاة حمراء الشعر من مونتنيجرو وتونسي ضخم يحمل درجة جامعية في الدراما.

جلسنا متجاورين. خلعت سترتها فكشفت عن بلوزة بيضاء من القطن تلتصق بساعديها وتغطيهما حتي الرسغين.

تجمع الشبان حول جهاز التسجيل يعدون شريطا يتألف من همهمات وأحاديث مختلطة بكل اللغات تتداخل وتتآلف بالتدريج إلي أن تغلبت عليها اللغة الفرنسية.

مددت يدي خلف ظهرها وربت علي البلوزة في خفة. ثم استرخيت في مقعدي. أغمضت عيني بعد لحظة وشعرت بالرغبة في النعاس.

مالت علي متسائلة:

– تحب أن أعيدك إلي الفندق لتستريح؟

أجبت بالنفي ثم فكرت أني تسرعت في الإجابة.

هل؟ غادرت مقعدها وانضمت إلي الشبان. وأخذت تتحرك بينهم وقد ضمت ساعديها إلي صدرها. كانت ترتدي بنطلونا أبيض وحذاء من الكاوتشوك فوق جورب سميك أبيض اللون. وكان البنطلون ضيقا ومكسما علي فخذيها وساقيها. وعندما تنحني لتهمس بشيء لأحد الفنيين أو الشبان مديرة ظهرها لي كانت مؤخرتها تتجلي في كل بهائها، دون أي انبعاجات أو ترهلات جانبية <

نتابع غدا

––––––––––––––––––––––––

هوامش

(1) فنان الرومانسية الأشهر(1798–1863). صور الثورة الفرنسية في لوحة خالدة باسم "الحرية تقود الشعب" كما زين برسومه جدران القصور الملكية.بعد الثورة. وفي عام 1832ذهب إلي المغرب في رفقة مبعوث فرنسي. وقضيا ثلاثة أيام في مدينة الجزائر التي استولت عليها فرنسا قبل عامين. وفي الميناء التقي ديلاكروا بمهندس

عاشق للرسم سمح له بدخول حريمه..وكان بذلك أول رجل أوروبي يتاح له رؤية الفضاء الداخلي للمرأة الجزائرية.

(2) ولدت عام 1948واعتقلت في الثانية عشرة من عمرها سنة 1960 لكتابة شعارات معادية للاستعمار والاشتراك في مظاهرة ضد الوجود الفرنسي في الجزائر..اشتهرت بأعمالها المركبة التي تجمع بين الكولاج وفنون الكمبيوتر وعروض حية تقرأ فيها أشعارها. وجمعت بين التجريد والتعبيرية مما يشير إلي اتجاه حداثي ثان. تعيش وتعمل في لندن.

ربما لم تكن ترتدي كيلوتا لكن بالتأكيد لم يكن علي ظهرها أثر لسوتيان.

شعرت كأنها تقدم لي عرضا مبهجا. وربما رسالة إلي نوع اللقاء الذي نقترب منه في ليلتنا الأخيرة.

تمثال المرأة الفرعونية العارية بخصر ضيق يتسع عند الحوض بانسياب تدريجي وعانة بارزة ثم فخذين ممتلئين متلاصقين. بدت راضية عن سير التسجيل واقترحت أن نذهب. ارتدت سترتها وخرجنا. تطلعت إلي ساعتها وقالت: مازال أمامنا وقت علي موعد العشاء. ما رأيك في أن نشرب قهوة؟

مشينا نبحث عن مقهي وذراعي حول وسطها وظهر فخذها الصلب يصطدم بفخذي. توقفنا أمام واحد واكتشفنا أنه لا يسمح بالتدخين. فواصلنا السير حتي عثرنا علي آخر. جلسنا نشرب قهوة كابوتشينو. وأخرجت إصبعا من زبدة الكاكاو دهنت به شفتيها.

تحدثنا عن الكتب والروايات التي تفضلها. واكتشفنا أننا نقرأ لنفس المؤلفين.

قالت: أنا أحسدك لأنك ما زلت تعمل.أما أنا فأفكر في التقاعد لأني مللت عملي وأريد أن أتفرغ لكتابة مذكراتي.

طلبت عنوانها الإلكتروني فأعطتني بطاقتها. وسجلت لها عنواني فوق برنامج المؤتمر فوضعته في حقيبتها.

أخذنا «تاكسي» إلي الفندق وجلسنا في البار. أخذت بيرة وطلبت لها كأسا من الويسكي جرعته مرة واحدة فطلبت لها كأسا آخر.

جرعت الكأس الجديد علي مرتين ثم وضعته علي المائدة وقالت لي:

– أنا مصابة بالسرطان.

ابتلعت المفاجأة وقلت في هدوء: وماذا في ذلك؟ إنه شيء عادي هذه الأيام.

. لم تكن هذه الإجابة ما توقعته مني.

مضيت قائلا: الواحد يسمع عن قصص العلاج الناجح. كل ما في الأمر أن بعض أنواع العلاج والجراحات تفقد المرء شهيته للجنس.

قالت: السرطان لم يؤثر علي جنسيا بل بالعكس. لكني أكره البتر والتشويه للجسد.

قلت لها وأنا أتحاشي النظر إلي صدرها المسطح إني توقعت شيئا من هذا القبيل.

قالت: هذا سهل فهو يبدو في الوجوه. قلت:لا فوجهك شديد الحيوية.

قالت إنها خضعت للعلاج النفسي طوال ثلاث سنوات. لكنها استفادت من التجربة رغم ما تمثله من ضربة سيكولوجية للمرأة.

ران علينا الصمت ثم قطعته قائلة: هل تذكر حديث فريدة عن أسطورة القوة الجنسية للرجل العربي.

اعترضتها ساخرا من الفكرة: الأمر يتوقف علي سلامة الغذاء وبذلك يكون الأوروبي أقوي من الناحية الجنسية.وربما كان الحرمان الناتج عن الأوضاع الاجتماعية هو المسئول عن اهتمام العربي المبالغ فيه بالجنس مما ساهم في تشكيل هذه الأسطورة.

أضفت بعد لحظة: علي أي حال لا أظن أن الفرنسيين أقل اهتماما بالجنس من العرب قياسا علي إعلانات الشوارع وبرامج التليفزيون.

لمحت إميلي تمر من أمام البار فقلت لها بسرعة: أنا سعيد بهذا الحديث.

قالت: أنا لا أتحدث عادة بهذه الصراحة لكني استرحت إليك فأنت تجعلني أضحك

قلت: مهرج يعني.

قالت بسرعة:أبدا.

قلت: إحساسي نحوك هو نفس إحساسي في أول تجربة عاطفية لي في سن العشرين عندما كان الحديث يدور وقتها بلغة العيون.

ضحكت ساخرة.

اقتربت منا إميلي بصحبة ماريان التي ارتدت فستان سهرة رغم أن شعرها لم يكن مرتبا. استفسرت عن فريدة فقالت إميلي إنها سافرت منذ ساعتين.

قلت لها: أنا في حاجة إلي يوم إضافي لإقامتي وسأدفع تكلفته. لم تبد حماسا. ولاحظت أن سيلين تجاهلت الأمر تماما وتشاغلت بتقليب إحدي المجلات.

أجرت إميلي مكالمة تليفونية ثم ابتسمت متأسفة:الوقت متأخر لذلك، والحل أن تذهب إلي المطار في موعدك وتحاول بنفسك.

دعوتهما إلي نبيذ، ودق موبايل سيلين فقامت وانتحت جانبا وسمعتها تتحدث بانجليزية ركيكة. خالجني الشعور أنها تحدث عربيا فأرهفت السمع لأتبين شيئا من حديثها دون جدوي. وتضايقت.

انسحبت إميلي لأنها متعبة.وبقيت أنا وماريان إلي أن انضمت سيلين إلينا فانطلق ثلاثتنا إلي الخارج.

أخذنا تاكسي وفي الطريق حكت لنا أنها سافرت إلي الخليج عدة مرات فتأكدت شكوكي في هوية من هاتفها.

كانت ماريان هي الداعية وصحبتنا إلي مطعم أنيق بقاعة مستديرة وواسعة تزينها صور الممثلين السينمائيين وكانت مضاءة بأنوار قوية. وغلبت ملابس السهرة علي الحضور.

جلست أنا وماريان متجاورين في مواجهة سيلين. تأملت المائدة المجاورة وسرعان ما تخيلت دراما صغيرة حولها. كان يشغلها كهل أبيض الشعر أسمر البشرة ومعه امرأتان سمراوان بملامح عربية. وكانت احداهما عارية الساعدين اختلط في شعرها اللونان الأسود والأصفر وترتدي بنطلونا ضيقا من جلد النمر رغم بدانتها.وغرقت

المرأتان في حديث مشترك متجاهلتين الرجل الجالس معهما والذي كنت ألمح قدميه تهتزان في عصبية تحت المائدة.

التقط إحداهما وأصرت علي إحضار صديقتها معها؟أم التقط الاثنتين سويا في وعد بليلة ساخنة؟

طلبنا زجاجة نبيذ أبيض. ومشروم بالثوم والبقدونس مع ربع بطة لكل منا.

سألت ماريان بعد أن تبادلنا الأنخاب: هل ستحضران مظاهرة بعد الغد؟

استفسرت عن طبيعة المظاهرة.

قالت: إنها مظاهرة كبري دعت إليها المنظمات اليسارية ومنظمات حقوق الإنسان احتجاجا علي إجراءات وزير الداخلية ساركوزي ومطالبة بإنهاء حالة الطوارئ في باريس.

قلت: للأسف أنا مسافر في الغد.

تطلعت إلي سيلين لأري رد فعلها لكنها كانت تجرع الكأس الثاني من النبيذ.

قالت ماريان: تردد أن ساركوزي ينوي تكليف محام يدعي كلارسفيلد باجراء دراسة متعمقة حول القانون. هل تعرفان من هو؟

هززنا رأسينا نفيا.

قالت: إنه مناصر نشيط للاستعمار.وحصل من ثلاث سنوات علي الجنسية الإسرائيلية وأدي الخدمة العسكرية في صفوف الجيش الإسرائيلي أثناء الانتفاضة معلنا أنه يثأر لأجداد المحرقة. كما أنه يناصر حرب استعمار العراق بشدة.

سألتها عما قادها إلي حركة مناهضة العنصرية.

ضحكت: لقد ولدت بانفصام. فأمي كتالانية أسبانية وأبي كتالاني فرنسي ثم تزوجت رجلا من كورسيكا. وفي عام 68 صرت أنا وهو علي ناحيتين متعارضتين فانفصلنا. انضممت إلي كوميونة وناصرت اليسار المتطرف وعندما انتهت هذه الموجة مارست التحليل النفسي.

تناولت رشفة من كأسها بينما ملأت سيلين كأسا جديدة.واكتفيت بكأسي الأول كي أظل محتفظا بوعيي.

استطردت ماريان: صعود ميتران إلي السلطة جردنا من الدافع. فأخذت أبحث عن مشروع لحياتي وعملت بعض الوقت في المكتبات الاقليمية.وأخيرا وجدت نفسي – وزوجي الثاني أيضا – في حركة مناهضة العنصرية.

قلت: فريدة تقول إنه يشبه تمثال دافيد.

ضحكنا. وطلبت سيلين زجاجة أخري من النبيذ مضت تجرعه في شراهة.

هل تعد نفسها لليلة بلا كوابح؟

التقت عيوننا فعلت وجهها ابتسامة غامضة.

سألتني ماريان: هل تظن أن هناك مستقبلا للقومية العربية؟

قلت: طبعا فلغة الشعوب العربية ومصالحها واحدة. المشكلة في تفاوت درجات التطور الاقتصادي. القاعدة الصناعية مثلا هي التي ستؤدي إلي نجاح الاتحاد الأوروبي.

اعترضت سيلين: لا أعتقد فالحروب هي الأكثر توقعا بين بلدان الاتحاد الأوروبي. السياسات والمصالح متعارضة بين 15 دولة مستقلة. السياسة الزراعية مثلا. وهناك دول جديدة من أوروبا الشرقية ستنضم بعد سنتين كما أن إسرائيل تطالب بالانضمام. المصالح ستتضارب.

بدا لي أنهما تناقشتا في ذلك من قبل وأنه رأي شائع. فاستأذنت منهما لأدخن في الخارج. وغادرت المطعم ووقفت قرب أحد الطاعمين المدخنين. تمنيت أن تلحق بي لتدخن وأتمكن من تقبيلها. وشعرت بالندم لأني لم أستجب لنصيحة صديق لي وأحمل معي قرصا من الفياجرا.

انتهيت من التدخين بسرعة وولجت المطعم. ولمحت وجها مألوفا إلي مائدة تتوسطها زجاجة شمبانيا. ولم ألبث أن تعرفت في صاحبة الوجه علي ابنة رئيس البنك المصري الذي سهل لشركاء صديقي دانييل الاستيلاء علي 52 مليونا من الجنيهات. وكانت قد هربت إلي فرنسا.

قامت سيلين بمجرد اقترابي لتدخن بدورها. وسألتني ماريان عن مستقبل الحركات الثورية في العالم العربي.

أجبت باقتضاب متجنبا الدخول في نقاش عقيم سيؤدي إلي سؤال عن الظاهرة الاسلامية. وأنقذتني سيلين بعودتها إذ حكت عن وليمة بلا كحول حضرتها في بلد خليجي لا تذكر اسمه. وبالطبع لم تكن هناك خمور مع الطعام. لكن قرب نهاية الوليمة وزعت علي الجالسين زجاجات كوكاكولا ممتلئة بالنبيذ الأحمر.

وكأنما ذكرتها القصة بالشراب فأفرغت ما تبقي من الزجاجة في كأسها وأشارت إلي النادل طالبة زجاجة جديدة. وعندما أحضرها ملأت كأسها وجرعته في شراهة ثم أشعلت

سيجارة. جاءالنادل علي الفور ينبهها فاعتذرت وأطفأت سيجارتها. واستأنفت النقاش مع ماريان في عصبية حول الاتحاد الأوروبي.

وبعد قليل أشعلت سيجارة مرة أخري فصدرت كلمة استهجان من سيدة متعجرفة سبعينية تجلس بعيدا. وجاء النادل مرة أخري فاعتذرت من جديد.

شربنا قهوة ثم غادرنا المطعم وتوقفنا حتي تشعل سيلين سيجارة جديدة. ثم سرت خلفها وأنا أتأمل ردفيها اللذين سيصبحان سريعا في يدي. كان الجو باردا والهواء لاسعا فلفت السويتر حول صدرها وضغطت بساعديها فوقه ولفت رقبتها بإيشارب وردي مشجر. اقترحت أن نمشي قليلا فقالت إنها تشعر بالبرد.

عبرت الطريق وأحضرت سيارة تاكسي. ونزلنا أمام الفندق بينما واصلت ماريان إلي منزلها. وبينما كنت أودعها جرت سيلين إلي داخل الفندق.ولحقت بها عند المصعد.

ولجناه وأغلقت الباب ثم اقتربت منها لأحتضنها لكنها فاجأتني دون أن تدفعني بثورة: ما هذا الكلام الفارغ الذي قلته عن الاتحاد الأوروبي والوحدة العربية. ثم تعصبت ونرفزت وقمت واقفا.

تطلعت إليها مذهولا. وشعرت بأن وجهها قد اتخذ أبعادا أكبر.

قلت: لم أفهم.

قالت: أنت تفهم جيدا. وواصلت ثورتها وتبينت قولها فجأة: أنا أكره أبناء المهاجرين ولا أريد أن أعمل معهم.

ثملة؟ أم جنت ؟

–أنت تريد أن تنام معي. طب وبعدين ؟ ع الناشف؟أم سأخلع البنطلون والكيلوت؟

قلت: لن أفعل شيئا لا ترغبينه.

قالت: طبعا.

قلت: أريد فقط أن أحتضنك.

مدت يدها وفتحت الباب وغادرت المصعد فخرجت وراءها.وقفنا أمام بابه المفتوح وواصلت ثورتها وهي تتلفت حولها لكن أحدا لم يهتم بنا من الجالسين في البهو. ومر بنا نادل دون أن يلتفت إلينا.

قلت: اسمعي. تعالي نصعد إلي غرفتي.

قالت: لا.

––إذن غرفتك

قالت لا طبعا. أنت شخص ساذج.

بدأت أغضب.

تستفزني عن عمد ؟ مازوخية؟ لكني لم أصفع امرأة في حياتي ولا حتي رجلا.

ولجت المصعد فهممت بمتابعتها.

قالت: لن أصعد معك وحدنا.

وقفت لحظة تتطلع إلي داخل المصعد بوجه شاحب.

شخصية أخري تماما.

أشرت لها بيدي قائلا: تفضلي وحدك. ترددت لحظة وهي تتأملني ثم قالت: سنلتقي في عالم آخر أولا نلتقي.

أغلقت الباب وبقيت واقفا. ثم أخذت المصعد الآخر. خرجت في طابقي ومضيت إلي غرفتي. أشعلت سيجارة وجلست علي حافة الفراش.

لن أتصل بها ولن أصعد إلي غرفتها ولن أمدد إقامتي. هل ستتلفن وتعتذر أو تأتي وتطرق الباب وتبكي؟

اتصلت بالفندقي طالبا إيقاظي في الخامسة صباحا. أشعلت سيجارة جديدة و مضت ساعة دون أن يدق التليفون أو الباب. فخلعت ملابسي ببطء وأعددت حقيبتي الصغيرة واطمأننت علي نقودي وجواز السفر. وأدرت التليفزيون.

عثرت علي قناة اخبارية أوروبية أعلنت استمرار حرق السيارات منها 13 سيارة وسط باريس و18 باصا في سانت اتيين.

. أغلقت الجهاز وأدرت الراديو ثم أقفلته. أطفأت الأنوار تاركا نور الحمام. شعرت بالبرد فأدرت مفتاح التكييف الساخن إلي أقصاه ولجأت إلي الفراش. أغمضت عيني لكن وجهها ظل أمامي وكلماتها تتردد في سمعي. كنت غاضبا لكن كلما تذكرت وقفتها المترددة أمام مدخل المصعد قبل أن تلجه وتختفي، رق قلبي لها.

نمت قلقا. في الخامسة استيقظت واغتسلت وحملت حقيبتي وتأكدت أني لم أنس شيئا. فتحت الباب وفوجئت ببرنامج المؤتمر الذي أعطيته لها بعنواني علي الأرض أمام الباب. التقطته ووجدت سطرا بالقلم الرصاص أسفل عنواني استغرق مني بعض

الوقت كي أفك حروفه: "ردي أنك بالضبط انسان ساذج ومتخلف". وضعت البرنامج في حقيبة يدي ومضيت إلي المصعد بخطوات ثقيلة >

من المؤلف

لأن هذه الرواية تقوم علي التخييل فإن المؤتمرين المذكورين لم يعقدا في الحقيقة وإن كان انعقادهما واردا، كما أن مؤتمرات مماثلة قد انعقدت بالفعل. وبالمثل فإن الشخصيات المذكورة أيضا هي شخصيات روائية وإن كان من الممكن أن توجد في الواقع مثل الدكتور شكري أستاذ التاريخ المقارن والشخصية الرئيسية في رواية أخري لي هي "أمريكانلي".

أما أحداث الشغب فقد وقعت بالفعل في نفس التوقيت المذكور في الرواية وبدأت في 27 أكتوبر واستمرت حتي نهاية نوفمبر 2005.

وكان اثنان من نواب الجمعية الوطنية الفرنسية قد تقدما في 5 مارس 2003 بمشروع قانون يقضي بالاعتراف العام بالعمل الإيجابي للفرنسيين الذين عاشوا في الجزائر أثناء الوجود الفرنسي. وفي البداية لم يصدر عن نواب اليمين واليسار رد فعل عندما نوقش في الجمعية الوطنية في 11 يونيو 2004. وفي 16 ديسمبر صوت الاشتراكيون في مجلس الشيوخ للقانون بحيث تم إقراره في 10 فبراير 2005 وهنا بدأ ظهور المعارضة له وخصوصا لكل من المادة الأولي التي توجه الشكر للذين ساهموا في المهمة التي أنجزتها فرنسا في الأقاليم الفرنسية القديمة، والرابعة التي تطالب باعتراف المناهج الدراسية بالدور الايجابي للوجود الفرنسي فيما وراء البحار وتقدير تضحيات مقاتلي الجيش الفرنسي في هذه الأراضي. والمادة الثالثة عشرة التي تعطي

حق المطالبة بتعويض عن كافة الإجراءات العقابية السابق صدورها – علي خلفية أحداث الجزائر – ضد من يتمتعون بالجنسية الفرنسية. وبعد تصريح للرئيس الفرنسي شيراك طلب رئيس الوزراء دو فيلبان من المجلس الدستوري في 25 يناير 2006 حذف المادة الرابعة دون مناقشة. وفي 31 يناير 2006 وافق المجلس الدستوري علي طلب رئيس الوزراء.

ويوجه المؤلف الشكر لكل من هايدي تويليه الأستاذة بجامعة السوربون وأمينة رشيد الأستاذة بجامعة القاهرة وكليمنتين حبيب الرب ورانيا فتحي علي ماقدموه من عون أثناء العمل في هذه الرواية <